B.U.B. LIBRARY

892.78
Sa2479fA
C.1

فتاة الفيوم

الفصل الثالث

بعض الغامض

توارت الشمس في الحجاب بعد ان ودعت الزرع وداع التحاب والبست الجوّ حلة عسجدية وبسطت على الارض مطارف كسروية وحلّقت الغربان في عنان السماء لتكون آخر من ينظر ملكة النهار فوق الغبراء . ووقف البدر رقيباً ليرى ما يكون من هذا الوداع وقد اصفرّ وجههُ حسداً وودّ ان يشتد حلك الظلام ليكون فيهِ مفتقداً . وخرجت النساء للاستقاء وقد توجنَ رؤُوسهنّ بجرار الماء . وعادت الانعام من المراعي بطاناً بعد ان خرجنَ اليها خماصاً . وتموجت اردافهنّ كانهنّ لبسنَ من الحرير درعاً دلاصاً . ونبحت كلاب العزب عابري الطريق . وارتفع الدخان من الاكواخ وليس في القدور غير السليق . وضاءت الحباحب في كهفها ليهتدي اليها الفها . وطارت الخفافيش تفتش عن فراش تأكلهُ . ونقّت الضفادع طرباً كأنها لا ترى في الحياة عبئاً تحملهُ

وانفرد المستر مكنزي بمس برون ثانيةً قبل العشاء فرآها تنظر طارةً الى السماء وطوراً الى الماء وقد مسكت بيدها زهرةً برية وهي تفتل غصنها بانامِلها كأنها تحاول جمع افكارها المتشردة فتعصيها . فقال لها قولي لي ماذا اقول لابيك وكيف يصحُّ لي ان التقي بهِ ولا اسأله عنك وكيف اتجاهل وجودكِ في مصر . وهل انتِ مسرورة بالاقامة في هذا البيت

فابرقت اسرّتها لما انتقل من السؤال الاول الى الثاني وقالت نعم اني مسرورة جدًّا بالاقامة هنا مع مس ابرهيم بك وانا احبها مثل اختي وهي تحبني مثل اختها ولا تقدر ان تفارقني يوماً واحداً وقد انحرفت صحتي في الشهر الماضي فقلقت عليَّ اشد القلق واتوني بطبيب من القاهرة كأن لا قيمة للمال عندهم نعم هم يدققون في الامور الصغيرة الى حد البخل ولكن اذا دعت الحال فتراهم يعطون الف الجنيه كما يعطون الغرش وفوق ذلك فان لي هنا عملاً اهم من ركب الاوتوموبيل والرقص في بيوت لندن وهو اني ساعدت مس ابرهيم في ترتيب بيت ابيها . ماذا كنت اعمل في لندن غير النوم الى الظهر والسهر الى نصف الليل ومسايرة لورد مورلي اكراماً للادي مكدن . ليكن في علمك اني باقية هنا وغير راجعة الى لندن ابداً وارجو من شهامتك ان تكتم امري كل الكتمان لاسيما وانك غير مكلَّف بافشائهِ

فقال لها اذاً ابرهيم بك وعائلتهُ لا يعلمون شيئاً من قصتك يا مس مكدن

ففالت كلاَّ ولا يعلمون الاَّ اني فتاة انكليزية اتيت مع ابنتهم رفيقة لها

28684

فقال ولكن ما هو السبب الذي دعاكِ الى ترك بيت ابيكِ والمجيء الى هنا ومن يترك قصور السر هنري مكدن و يأتي الى هذه البلاد

فقالت هذه قصة يطول شرحها وكنت اظن انك عالم ببعض تفاصيلها وهنذا ابرهيم بك وابنتهُ فلا سبيل لشرحها الآن ولا حاجة بي ان اكرر عليك الوصية بالكتمان التام

ودنت نزهة وابوها منهما وقالت نزهة لهما ارأيتما ما اجمل غياب الشمس تصوَّر يا مستر مكنزي اننا الآن في يناير و لا غيمة في السماء وقد مضى اكثر من شهر ولم تقع نقطة من المطر . كيف الحال عندكم الآن والمطر والثلج والبرد ولكنني احب بلادكم

فقال هل تحبينها اكثر مما تحبين هذه البلاد

فقالت لا اعلم . لا اظن . لا تصح المفاضلة بين البلادين لان لكل بلاد منهما مزايا ليست للاخرى ولكن لا شبهة في ان الصيف عندكم يفضل على الصيف عندنا من كل وجه والشتاء عندنا يفضل على الشتاء عندكم . هذا من حيث الهواء والحر والبرد . اما من حيث البلاد نفسها ونظافتها وجبالها ووهادها واشجارها وغياضها ومناظرها الطبيعية والصناعية وتغير اشكالها فلا شيء عندنا يقابل بها ولا سيما بلاد اسكتلندا وويلس وجنوبي انكلترا . بلادكم كلها جميلة وقد تبارت الطبيعة والصناعة في تجميلها . وبلادنا ايضاً جميلة . انظر الى هذه المروج الخضراء الفول والقمح والبرسيم شقق خضراء متصلة الحواشي لا فاصل بينها غير طرق السابلة الضيقة . وهذه البحيرة البديعة والجبال المنتصبة امامها والتاريخ القديم الذي يحيط بها . الوف والوف من السنين تنظر الينا من وراء الغيب اين امنهوتب اين رعمسيس اين ملوك الفرس اين البطالسة اين القياصرة اين القرون التي مرَّت على هذه البلاد وابقت فيها من آثار عظمتها ما يدهش العقول . هل رأيت هرم ميدوم في طريقك الى الفيوم . نحن هنا في مدرسة دائمة ندرس تاريخ الامم وما مرَّ بها من العبر . اليس الامر كذلك يا مس برون . سنصير انا وانتِ من علماء الاجبتيولوجيا[1] ياعزيزتي

قالت ذلك واعتنقتها وقبلتها وكانت تحمل برنيطتها بيدها وهي من برانيط الشمس الواسعة الكنار وشعرها معقوص على رأسها قصائب متموجة اسود ضارباً الى الشقرة . فنظر اليها المستر مكنزي مليًّا وقال في نفسهِ لقد صدقت فان دم اليونانيين والرومانيين اختلط بدم المصريين الاولين والناس كلهم اخوة وابناء اب واحد وام واحدة وما هذا الاختلاف الذي نراهُ في الوانهم وملامحهم الاَّ من تأثير الاقليم والمعيشة

(١) علم الآثار المصرية

واجتمعنا الساعة السابعة مساءً حول مائدة فاخرة واديرت علينا الوان الطعام من سمك البركة وبطها ولحوم الفيوم المشهورة بطيب طعمها مطبوخة كلها على النسق الفرنسوي او ما يقارب النسق الشرقي ودار الحديث اولاً على صيد السمك من بحيرة قارون لاننا كلنا استطبنا سمكها ثم على صيد البط منها وممَّا يجاورها وكان امين ورياض قد مضيا للصيد بعد الظهر وعادا بعشر بطات وطيور اخرى صغيرة . والتفتت نزهة الى ابيها وقالت لهُ ما دام امين ورياض يأتياننا بصيدهما فيكون من الحكمة والتوفير ان نقيم ههنا . فقال امين اصبتِ لان اصحابك قد غلَّوا علينا المعيشة في كل مدن القطر . قال ذلك والتفت اليَّ كأنهُ يطلب موافقتي لهُ على كلامهِ

فقلت نعم ان المعيشة اصبحت غالية جدًّا وان كان لاصحاب السيدة نزهة يد في ذلك فتكون يدهم للنفع لان المعيشة لاتغلو الَّا حيث ترخص النقود والنقود لاترخص الَّا حيث تكثر

فقال امين نعم هذا مبدأٌ صحيح في فن الاقتصاد السياسي ولكن قد تكثر النقود وتكون للذين تكثر بينهم وقد تكثر وتكون ديناً عليهم كما في حالتنا الحاضرة فقد جاءتنا البنوك باموال اوربا فاستدناها منها ونحن نبذّرها الآن فرخصت بين ايدينا وغلت برخصها الحاجيات والكماليات ولكن الدين لا بدَّ من ايفائهِ عاجلاً او آجلاً فمن اين نوفيهِ بعد ان نكون قد بذَّرناهُ وانا اؤكد لك ان حالنا اليوم اسوأُ مما كان عليهِ حال آبائنا منذ ثلاثين او اربعين سنة

فقال ابوهُ نعم اسوأُ مما كان في زمن السخرة والكرباج اسوأُ مما كان في عهد الظلم والاستبداد هذه الاطيان كلها هذا التفتيش الكبير نزع من اصحابهِ غصباً عنهم بثمن او بلا ثمن وضُمَّ الى املاك الدائرة السنية وأُجبر اصحابهُ على حرثهِ وزرعهِ من غير اجرة والكرباج فوق رؤُوسهم واذا هرب واحد منهم أُلزم اخوتهُ او اقاربهُ او اهل بلدهِ ان يقوموا بما كان مفروضاً عليهِ من العمل وان يدفعوا ما كان مفروضاً عليهِ من المال . ماذا تعلم من الايام الماضية حتى تفضلها على هذه الايام ابوك عرف الزمانين انا عرفت ذلك الزمان وهذا الزمان واني متعجب كيف بقي احد منا في قيد الحياة فبأي حق تفضل تلك الايام على هذه الايام

فقال رياض اما انا فاني كنت اود ان اكون في تلك الايام مفتشاً في هذا التفتيش حينما كان يزرع قصباً

وكأن السيدة نزهة رأت ان الحديث اوغل في سبل الجد فارادت ان تصرفهُ الى الهزل فقالت لاخيها حتى تشبع من القصب

فقال نعم حتى اشبع واشبعك انت ومس برون فانكما تجبانهِ اكثر مني

فقلتُ لمس برون هل تعلمتِ مص القصب

فقالت تقريباً ولكنني لست ماهرة مثل مس لبيب

فقالت السيدة نزهة نسيت القصب مع انهُ احسن فاكهة هنا

ثم التفتت الى احد الخدم واوصتهُ ليذهب الى اقرب مقصبة ويحضر لنا القصب منها عتذرت الينا عن فعلها هذا وقالت بالعربية برّية وحرية ثم ترجمت عبارتها بالانكليزيَّة يفهمها المستر مكنزي

فقال لها لا داعي للاعتذار فان كل ما اراهُ على غاية الانتظام وانا احب القصب كما تحبونهُ ولو لم ابلغ مبلغ المستر رياض في محبتهِ ثم التفت الى ابرهيم بك وقال لهُ هل تظن ان كثيرين يقولون قولك من جهة تفضيل هذه الايام على الايام الماضية

فاجابهُ ابرهيم بك ان الذين ذاقوا مرارة تلك الايام يعرفون حلو هذه الايام واما يوسف وامين ورياض فلا يعلمون منها شيئاً ولا يستطيعون ان يتصوَّروها

فقالت السيدة نزهة انا استطيع ان اتصورها فاذاً انا اكبر منكم كلكم فاني استطيع ان اتصور العمدة او شيخ البلد مطروحاً على الارض ورجلاهُ في الفلق واثنين يروغان عليهِ بالضرب الى ان يغمى عليهِ فيرش وجههُ بالماء حتى يفيق ثم يعاد ضربهُ حتى يسيل الدم من رجليهِ وجنبيهِ وقد اخبرتني المرحومة جدتي انهم فعلوا كذلك بالمرحوم جدي وقصَّت عليَّ القصَّة مراراً كثيرة حتى رسخت في ذهني . اما امين فلا يصدق ان الناس كانوا يمتهنون الى هذا الحد

فقال ابوها ان ما اخبرتك بهِ امي ليس شيئاً بالنسبة الى ما كان يصيب غيرنا لان ابي كان من المفتشين المسموعي الكلمة اما غيرهُ من العمد والاعيان فكان يجلد مراراً في العام الواحد ولكن ما لنا ولهذا الحديث الآن هات يامستر مكنزي اخبرنا كيف وجدت بلادنا

فقال المستر مكنزي وجدتها من اجمل البلدان حتى في فصل الصيف فاني لم اجد حرارتها اشد من حرارة بلاد الهند . حتى بلاد السودان لا تبلغ في حرها مبلغ بلاد الهند وقد ذهبت الى الخرطوم في الصيف الماضي ولم أرَ الحر فيها فوق الطاقة واصابنا الهبوب مرَّة او مرَّتين وانا هناك فتضايقنا منهُ ولكن مدتهُ قصيرة و يزول حالاً والصحة هناك على اجودها لنقاوة الهواء وجفافهِ

فقال لهُ امين فلا عجب اذًا اذا قيل انكم ستجعلون السودان هندًا ثانية ولكن اذا كان الامر كذلك فلماذا تحملون مصر نفقاتها او عجز ميزانيتها

فقال المستر مكنزي اظن ان السبب واضح وهو اننا اذا لم نحفظ السودان لمصر اخذتها دولة أُخرى ولم يعد في طاقتنا ان نتصرف بالنيل تصرفًا يعود بالنفع على مصر . وانا لست بارعًا في التعليل السياسي ولكن اظنني مصيبًا في هذا القول اليس الامر كذلك يا ابرهيم بك

فقال ابرهيم بك نعم هذا هو الصواب فقد كنا نقاسي الاهوال من قلة الماء في زمن التحاريق اما الآن فاصطلحت الحال جدًّا ولا نزال نحتاج الى كثير من الماء ولا سيما في الفيوم فاذا كانت الاعمال التي يراد عملها في السودان تكفل لنا الري الصيفي فكل ما ينفق على السودان لايكون شيئًا بالنسبة الى الفوائد التي ننالها منهُ

فالتفتت السيدة نزهة اليَّ وسألتني عن رأيي في المسألة فقلت اني من رأي ابرهيم بك ولكن يمكن الاقتصاد في نفقات السودان كثيرًا فاني لا أرى فائدة لسكة سواكن او لاداعي لها الآن وقس على ذلك نفقات كثيرة من هذا القبيل . وتعمير السودان لازم ولكن لا داعي للتعجل فيهِ ولا هو مطلوب منا

فقالت لي هل ذهبت الى السودان . فقلت نعم ورأيت اعمال الاصلاح جارية فيهِ بما يمكن من السرعة

فقالت وهل السودانيون اهلٌ لان يعتنى بامرهم الى هذا الحد

فقلت يظهر ان العرب منهم اهل لذلك وهم يقدرون الاعمال التي تعمل في بلادهم قدرها ولكن هي مثل كل الاعمال الآتية من الخارج تقبل كأنها ثياب عارية وانت تعلمين المثل العربي الثوب العارية لا يدفئ ولا فلاح لامَّة ما لم تنهض هي نفسها وتحك ظهرها بظفرها كما يقال

فقال امين اصبت اصبت وهذا حالنا في مصر فان المستر مكنزي واصحابهُ قبضوا على كل الاعمال والمصالح ومهما احسنوا واخلصوا في ادارتها فنحن الخاسرون اخيرًا لاننا نصير عاجزين عن ادارتها بانفسنا فلو تركونا وشأننا لادرنا امورنا واخطأنا اولاً من وجوه كثيرة ولكن الانسان لا يتعلَّم الَّا من الخطإ فنتعلَّم اخيرًا كيف ندير اعمالنا من غير خطإٍ كالطفل الصغير فانك ما دمت تحملهُ بيديك خوفًا من ان يعثر ويقع اذا مشى فانهُ لا يمشي ابدًا ولكن دعهُ يمشِ على رجليهِ ويقع فانهُ يتعلم المشي اخيرًا

وكنا قد فرغنا من اكل الفاكهة فقالت السيدة نزهة ابقوا في حديثكم السياسي الاقتصادي وانا والسيدة نزهة خارجتان نمشي في ضوء القمر . وقال المستر مكنزي وانا

امشي في رفقتكما ان سمحتما لي وقلت انا كذلك وقمنا وخرجنا نمشي على شاطئ البحير

قالت زهرة لاحمد وهما يرفعان الصحاف عن المائدة "شفت الراجل الانكليزي دا يكلم ستي برون وحدها اظنها من بلده"

احمد — كلهم من بلد واحد والظاهر يعرفوا بعض من قبل

زهره — لا ما يعرفوش انا كنت حاضره لما عرّفتهم ستي نزهه ببعض وموش عارفه ليش ستي برون ما عادتش تتكلم مثل عادتها وصار كل الكلام لستي نزهه

احمد — الظاهر في حاجه بينها وبين الراجل دا

نزهة — ما اعرفشي ومن اول ما بصّيت فيها قلت دي بنت ناس كبار وكنت رتب صندوقها من يومين ثلاثه وجدت عندها علبة مجوهرات احسن ما عند ستي نزهه ولما شفتها اخذتها مني وخبتها . انا موش خايفه منها ولكن قلبي يقلي انها مش تمام

وبينما هما يتحدثان كذلك دخلت جارية سوداء مترهلة البدن في سن الكهولة وشتمتهما وامرتهما ان يسرعا في تنظيف المائدة لان يوسف بك قال لها ان البكوات سيعودون قريباً ليلعبوا الورق هناك

وفيما نحن نتجاذب اطراف السمر في ضوء القمر والسيدة نزهة تقول بعثت مرسي ليجلب لنا قصب السكّر ولم يعد حتى الآن اذا بطلق بندقية تبعتهُ طلقات كثيرة وصعقات شديدة فعدونا كانا الى ناحية الصوت مدفوعين الى ذلك عن غير قصد وبعد مسيرة نحو الف خطوة رأينا رجلاً مطروحاً على الرمل والى جانبهِ عيدان القصب وحاول الدكتور يوسف انهاضهُ فوجدهُ ميتاً لا حراك بهِ والدم لا يزال ينزف من جنبهِ ورأت السيدة نزهة هذا المنظر فاضطربت وأُغمي عليها فحملها اخوها بين يديهِ وابعدها عن القتيل والقاها على ظهرها وفك ازرارها وبعث رياضاً اخاهُ الى الخيمة ليأتيهُ بجزدان الادوية والشمامات ولم يكن الاَّ دقائق قليلة حتى اتى الخفراء الينا وقصوا علينا واقعة الحال وهي انهم أُخبروا ان الشقي ابا سعدان ومنصرهُ مختبئون في القصب وقصدهم السطو على عزبة الياس فتربصوا لهم هناك ورأوا الخادم مرسي عائداً بالقصب فانذروهُ ان لا يعود بطريق الجبل والظاهر انهُ رأى ترعةً او مصرفاً في طريقهِ فاختار طريق الجبل ورآهُ اللصوص واطلقوا عليهِ الرصاص فاسرع الخفراء اليهم وادركوهم ورموهم بطلقات كثيرة فاصابوا ابا سعدان رئيس المنصر لكن رفاقهُ كثروا عليهم وحملوهُ وتغلغلوا في القصب فتعذر عليهم اتباعهم

وحضر حينئذٍ كثيرون من اهالي العزب المجاورة وأُرسل الخبر الى معاون البوليس في نقطة ابو كساه . وافاقت السيدة نزهة فشينا معها الهوينا واوصلناها الى نزل فارون لانها خافت ان تنام في الخيمة فنامت فيهِ هي ورفيقتها . ومضى الليل ونحن في قلق مستمر وكتابة محاضر التحقيق وقام ابرهيم بك في الصباح وعاد بعائلتهِ الى الفيوم ومضى الدكتور يوسف مع جثة مرسي الى مركز سنورس وقد حزن اولاد ابرهيم بك على خادمهم حزناً شديداً لان لهُ في خدمتهم سنين كثيرة وكان كبير الهمة شديد الامانة

وبقيت انا يومين آخرين وعدت الى الفيوم مع المستر مكنزي وكان رفيقي قد سبقني الى مصر

الفصل الرابع

استقلال مصر

حالما وصلنا الفيوم مضيت انا والمستر مكنزي وزرنا بيت ابرهيم بك نسأل عن صحة السيدة نزهة ونشكرهم على حسن ضيافتهم لنا فرحبوا بنا وطلبوا منا ان نقيم عندهم ونتغدى معهم

والبيت قديم ولكن أُدخلت فيهِ اصلاحات كثيرة جديدة وهو طبقتان كبيرتان جداً السفلى لمقابلة الزوار ونزول الضيوف وفيها غرفة كبيرة للمائدة ومكتبة ابرهيم بك وهي حافلة بالكتب النفيسة ولا سيما الكتب التاريخية اما غرف المشاهدة التي يشاهد فيها الدكتور يوسف مرضاهُ فمبنية وحدها في طرف الحديقة . والطبقة العليا قسمان مفصولان احدهما عن الآخر الواحد للنساء والآخر للرجال وفيهما غرف كثيرة للمنامة والاكل والجلوس والاستقبال . ولم أَرَ في بيت من بيوت مصر من فاخر الاثاث والرياش اكثر مما رأيت في ذلك البيت وقد قيل لي ان اكثر الاثاث الثمين مشترى من سراي الجيزة وسراي الجزيرة فهو من قصور اسمعيل باشا وبعضهُ كان لا يزال في صناديقهِ كما اتى من اوربا كالثريات الكبيرة والبسط التي من نوع الغوبلين الثمين والستائر المحوكة لاسمعيل باشا خاصة والموائد والكراسي والمقاعد وما اشبه

وكان ابرهيم بك جالساً في مكتبتهِ واثاثها انكليزي كلهُ فاستقبلنا فيها ولحَّ علينا بالبقاء عندهم وقال لنا رياض انهُ ينزل معنا الى مصر لان اجازتهُ انتهت ولا بدَّ من رجوعهِ الى المدرسة فاجبنا طلبهم وجلسنا معهم في المكتبة حول نار موقدة لان النهار كان بارداً جداً

وقال ابرهيم بك لابنهِ رياض انك راجع اليوم الى المدرسة فاحذر من ان تجاري غيرك من الشبان في المظاهرات الفارغة كما فعلتم سابقاً فان الذين يحركونكم ويحضونكم على ذلك خادعون او مخدوعون واني ارى الحوادث الجارية الآن مثل الحوادث التي كانت جارية قبيل الثورة العرابية واخاف من عاقبتها

فقلت لهُ هل تتبعت حوادث الثورة العرابية من اولها

فقال كيف لا وقد كنت محسوباً من دعائم الحزب الوطني قبل ان تهوَّر ثم اضطررت ان انفصل عنهُ لما رأيت بين اعضائهِ عدداً كبيراً من المهاويس او المفاليس . فقبضوا عليَّ وزجوني في السجن لانهم ظنوا بي الخيانة مع اني لم اخنهم قط ولكن كان لي صديق كنت استخلصهُ واخبرهُ بكل ما يجري في اجتماعاتنا والظاهر انهُ كان جاسوساً فكان يمضي ويفشي اعمالنا ولولا وساطة بعض الاصدقاء لقضي عليَّ

وابرقت اسرَّة المستر مكنزي وقال لابرهيم بك احبُّ ان اقف على خلاصة ما تعلمهُ من اسباب الثورة العرابيَّة ومأجرياتها وهل تظن حقيقة ان الحركة الحاضرة تؤدي الى ما ادَّت اليهِ تلك

فقال اما اسبابها وماجرياتها فسأشرحها لك لاني من اخبر الناس بها وعندي كل تفاصيلها واما هل تؤدي الحركة الحاضرة الى مثلها او لا تؤدي فهذا يتوقف على المتطرفين من حزب الاحرار عندكم لانهم اذا ظلوا ينفخون في انوف الذين يغترون باقوالهم واقنعوهم ان انكلترا تجلي عن القطر المصري اذا نحن غاضبناها فلا يبعد ان يصدِّق جمهور كبير قولهم ويجاهروا بالعدوان ولاسيما اذا اصاب البلاد عسر مالي لان المديون المفلس يلتمس كل وسيلة للتخلص من دائنهِ او لتخويفهِ حتى لا يطالبهُ بالدين . نعم اذا بقيت الاشغال رائجة كما هي رائجة الآن فلا خوف من الثورة لان الاكتساب يربط الناس بالمصالح . ولكن رواج الاشغال الذي نراهُ الآن لا يطول لان الاموال آتية من الخارج ولا بدَّ من ان ينقطع سيلها و يطلبها اصحابها منا فيضطر الناس الى الايفاء . انظر الى فلان صاحب الجريدة الفلانية فانهُ يبلغني انهُ مرتبط مع بعض الشركات وقد ربح منها ربحاً طائلاً فهو يساير ويجامل الآن ولكن لا يبعد ان يغتر فيبتاع بما كسبهُ اراضي وعقارات لا يستطيع ان يوفي كل ثمنها ولا نصفهُ فاذا هبطت الاسعار بعد حين ولم يستطع ان يوفي ما عليهِ اضطرَّ ان يلجأ الى المشاكسة والمعاكسة وتكدير جو السياسة وفس عليهِ امثالهُ من المستغرقين في الدين

فقال المستر مكنزي هذه مسألة اخرى واسمح لي ان اقول اني لست من رأيك في

انقلاب الحال من اليسر الى العسر بل اليسر متزايد يوماً فيوماً ما دامت ثروة البلاد مكفولة بريع اطيانها . والذي يهمني البحث فيهِ الآن هو مسألة استقلال مصر فاني واثق تمام الثقة ان في البلاد الانكليزية حزباً كبيراً يرغب في جلاء جنودنا عن مصر واعطائها الاستقلال التام وهو الحزب الديموقراطي وهذا الحزب آخذ في الازدياد يوماً فيوماً فعلى مَ لا تساعدونهُ بتنبيه العواطف الوطنيَّة الى طلب الاستقلال فان الحزب الذي انا منهُ يرى ان ليس لنا اقل حق في احتلال مصر وان احتلالها لم يأتنا باقل نفع بل عاد علينا بالضرر الكبير ماليًّا وسياسيًّا فاولاً حمَّلنا نفقات الحرب العرابيَّة وحملة السودان الاولى وهي لا تقل عن عشرة ملايين من الجنيهات وثانياً خسرنا زهرة قوادنا وضباطنا في حروب السودان وثالثاً القى النفرة بيننا وبين اعظم دولة من دول اوربا حتى اضطررنا ان نترضاها مراراً . وتجارتنا مع هذا القطر لم تزد كما زادت تجارات الدول الاخرى فكأننا احتللنا مصر لضررنا ونفع غيرنا . ولذلك كلهِ لا استبعد ابداً ان يجلي جيش الاحتلال عن بلادكم في القريب العاجل

فقال ابرهيم بك هذه احلام يحلم بها بعض شبابنا وقد تفضي الى الامتلاك بدل الاحتلال والظاهر انهُ فاتك يامستر مكنزي ان السبب الحقيقي لمجيء انكلترا الى هذا القطر هو المحافظة على اموال المدابنين واصحاب ترعة السويس والمتاجر الكبيرة في القطر فان اسمعيل باشا ترك البلاد مدينة لماليي اوربا بنحو مئة مليون جنيه عدا ديون الاهالي الكثيرة لاصحاب البنوك فلما خاف الماليون على اموالهم من الضياع بسبب الثورة العرابية الزموا الحكومة الانكليزية بارسال جنودها الى هنا . ويقول البعض ان الماليين هم الذين بزروا بزور الثورة وحرَّكوا العرابيين على القيام لكي يصلوا الى هذه النتيجة ويجعلوا السيطرة لانكلترا . وسواء صحَّ هذا القول او لم يصح فلا شك في ان المحافظة على اموال المدابنين ومصالح التجار كانت السبب الجوهري الذي حمل حكومتكم على ارسال جنودها الى بلادنا وهذا السبب لم يزل الآن بل قوي لاننا صرنا مدينين لكم نحن وحكومتنا بنحو مئتي مليون جنيه فلا يُعقَل ولا اصدق انكم تبدلون حالة جربتموها ورأيتموها مأمونة بحالة لم تجربوها ومن المحتمل او المرجح انها تكون غير مأمونة

فقال اصبت في كل ما قلت وهذا هو الامر الذي يحملنا نحن الراديكاليين على طلب الجلاء عن مصر لاننا نقول ان عامة الشعب الانكليزي الذي يدفع نفقات الحكومة ليس مكلفاً بان يحمي مصالح نفر قليل من الماليين واصحاب المعامل . فالماليون دينوا الحكومة المصرية على مسؤوليتهم ولم يستشيروا الامة الانكليزية واخذوا الربا الفاحش مقابل الخطر

من التدبين لحكومة غير مأمونة . واصحاب المعامل شأنهم شأن غيرهم من تجار الالمان والفرنسويين . والامة الانكليزية غير مضطرة ان تنفق على جيشها لحماية مصالحهم . ولو بحثت لوجدت ان الجانب الاكبر من دين الحكومة المصرية والشعب المصري لآحاد يعدون على الاصابع من الانكليز والفرنسويين فهل من العدل ان تغرّم امة عددها اربعون مليوناً لكي يأمن بعض اغنيائها على اموالهم وعلى الربا الذي يتقاضونهُ سنوياً

فضحك ابرهيم بك وقال اني مسرور بسماع هذه الاقوال منك وما كنت اظن ان رجلاً يشتغل في شركة مالية يخطر على بالهِ مثلها او يجاهر بها فقل لي ماذا يحلُّ بشركتكم اذا اجليتم عن مصر غداً

فقال من المحتمل ان احوالها تسوء ولا نعود قادرين على جلب الاموال من اوربا ومن المحتمل ايضاً ان احوالنا تصير احسن مما هي الآن لان معاملة الشرقيين اسهل جداً من معاملة ابناء بلادنا فهذا الامتياز او المشترى لم ننلهُ الاَّ بشق الانفس من معارضة فلان وفلان من رجال المالية على انهُ لو كانت معاملتنا مع الوطنيين لكان الامر اسهل جداً

فتبسم ابرهيم بك وقال كذا كذا يا مستر مكنزي

فشعر المستر مكنزي بخطإهِ واعتذر قائلاً اني لم اوضح مرادي فنحن قاصدون قصداً حسناً جداً فان هذه الاراضي التي اشتريناها بور كما تعلم ومن المرجح انها كانت تبقى بوراً ابد الدهر وما غرضنا ان نختلس املاك البلاد بل ان نزيد عمارتها فنفيد ونستفيد ويكون الربح الاكبر للبلاد لا لنا ولكن بعض رجالنا الموظفين عندكم قصار النظر في العواقب او شديدو الحذر لكثرة ما يسمعون من التقريع ولاسيما بعد ان اعطوا امتياز المناجم جزافاً فعاد بالخراب على آخذيهِ

فظهر على ابرهيم بك كأنهُ رضي بهذا الاعتذار ولعلهُ اعتقد صحتهُ واخلاص المستر مكنزي لكنهُ قال ومع ذلك فانا معتقد تمام الاعتقاد ان اصحاب النفوذ في بلادكم لا يسلمون بالجلاء الاَّ بعد ان يثقوا ان اهالي البلاد صاروا قادرين على ادارتها وحدهم وحفظها من طمع الطامعين فيها وهذا الامر لا ننالهُ الاَّ بعد سنين كثيرة

فقلت لهُ اتسمح لي ان اظهر رأيي في هذا الصدد

فقال تفضل وقل ما بدالك

فقلت اننا قد لا نبلغ الغاية المطلوبة اذا بقي الغير يعتني بنا ويدبر امورنا ولكن اذا تُركنا لانفسنا فلا شبهة عندي اننا نهتدي من تلقاء انفسنا الى مواقع الخطإ فنتجنبها والى

مسالك الصواب فنجري فيها وبغير ذلك لا يرجى ان نصير قادرين على حكم انفسنا بانفسنا وهذ هو رأي ولدكم على ما اوضحهُ لنا منذ يومين

فقال قد يكون الامر كما قلت ولكن الاوربيين اصحاب المصالح المالية والسياسية في هذا القطر لا يسلّمون معنا بامتحان ذلك لانهُ ان نجح الامتحان فلا تزيد الفائدة لهم وهي ضمان اموالهم ومصالحهم وان لم ينجح فالضرر كبير عليهم وما من عاقل يترك برضاهُ طريقاً مأموناً ويسير في طريق غير مأمون

قلت اذن يجب ان نفعل ذلك على غير رضاهم

فقال نعم ولكن هيهات اين مدافعنا وبوارجنا فاننا لما كنا على تمام الاهبة للقتال جرى لنا ما جرى . وقد صرّحت انكلترا غير مرة انها لا تترك البلاد الاّ برضاها وحينما تحكم هي انهُ حان الوقت لتركها . ووقائع الحال تدلني على ان نتيجة هذه المظاهرات والمشاغبات انما هي امتلاك البلاد فقد كان اصحابك الاحرار يامستر مكنزي يمنوننا بالاستقلال التام قبل الثورة العرابية وهذه كتاباتهم محفوظة عندي وحالما ثرنا تركونا وحاربونا

فقال احقيق ما تقول وهل يمكنك ان تريني كتابات كتبت حينئذٍ تدل على ان الاحرار كانوا يمنونكم حينئذٍ بان تعطَوا الاستقلال التام

فقال لبَّيْك ولكن لا بدَّ لي اولاً من ان اشرح لك اصل الحزب الوطني او اصل الحزب الناهض ضد الاجانب وعندي هنا ملخص مقالة نشرت منذ خمس وعشرين سنة في مجلة القرن الثامن عشر الانكليزية موضوعها (Origin of the National Party in Egypt). (اي اصل الحزب الوطني في مصر) وكاتبها رجل اوربي اقام في هذا القطر سنين كثيرة وعاشر كل طبقات الناس من اكبر الامراء الى اصغر الفلاحين وعرف كل ولاة مصر من محمد علي الى المرحوم توفيق باشا الخديوي السابق وهاك خلاصة ما كتبهُ في هذا الصدد

الفصل الخامس

اصل الحزب الوطني

لما اتيت مصر سنة ١٨٣٩ كان محمد علي شيخاً طاعناً في السن لكن عقلهُ كان لا يزال على مضائهِ وكان قصير القامة ممتلئ البدن مهيب الطلعة تراهُ مرةً فلا تنسى منظرهُ . في وجههِ ملامح الشعب الالباني مع شيءٍ من ملامح التتار كبير الانف صغير الفم عيناهُ صغيرتان براقتان كعيني الباشق ولحيتهُ طويلة بيضاء وحاجباهُ غليظان ابيضان يلبس الغمباز ويعتم

بعمامة وسيفهُ لا يفارق جنبهُ . وهو كثير الكلام كثير السؤال كثير الحركة صارم جدًّا في حكمهِ ولكنهُ يميل الى العفو والتؤدة احيانًا كثيرة . اجتمعت فيهِ مناقب الاتراك القدماء ومعايبهم

وكان بلاطهُ تركيًّا اي انهُ كان لا يتكلم الاَّ اللغة التركية في سرايهِ مع انهُ تعلم العربيَّة لكي يكلم بها اهالي البلاد . واستخدم كثيرين من الاوربيين وكانوا كلهم من العلماء وقد استخدمهم لعلمهم فقط فلم يسمح لهم ان يشتغلوا بالسياسة ولم يكن يكلمهم الاَّ نادرًا وكان الوسيط بينهُ وبينهم بوغوص بك عم نوبار باشا وهم الذين انشأوا لهُ مدرسة المهندسخانة ومدرسة الطب والمدرستين الحربيتين في طرة والجيزة ودار التعليم في باريس فتعلَّم الفتيان المصريون في هذه المدارس ونشأ منهم الرجال الذين اوجدوا الانتباه السياسي

وكان الفلاحون في الوجهين البحري والقبلي يعملون في اطيانهم كما كانوا يعملون من عهد الفراعنة ولا يخطر لهم خاطر في سياسة بلادهم ولا ينظرون الى غير محمد علي حاكمًا شرعيًّا لهم . كانوا يهابونهُ ويخافون منهُ لكثرة مَن اخذ منهم لحروبهِ ولكنهم لم يحلموا قط انهم يستطيعون ان يسألوهُ عما يعمل . ولم يكن طماعًا ولا متلافًا فكان يأخذ منهم كل ما يحتاج اليهِ من غير قيد ولكنهُ كان يكتفي بهِ فلم يستدن غرشًا ومات وليس على الحكومة غرش دينًا

ولما وصلتُ الى مصر قابلني مرتين وسألني عن عملي وهو زرع القطن وارسلني الى المنصورة لكي اراقب شوَنهُ هناك وازرع الفي فدان من قطن السي ايلند . وهناك تعرَّفت بالفلاحين وعاشرتهم فانهم كانوا مضطرين ان يأتوني بمحصولاتهم من كل انحاء الوجه البحري لان محمد علي كان محتكرًا اياها . واضطررت ان اسافر كثيرًا في اقاليم الوجه البحري وكان ترجماني شاب من الفلاحين اسمهُ محمد افندي وقد تخرَّج في مدرسة المعلمين بباريس ونال الشهادات العليا في العلوم والآداب وهي توَّهلهُ ليكون استاذًا فيها لانهُ كان من النوابغ فلما عاد الى وطنهِ جُعل كاتبًا صغيرًا براتب لا يزيد على ثلاثة جنيهات في الشهر لان اقرانهُ من الاتراك والشراكسة غاروا منهُ على ما قال لي وسعوا في اقصائهِ عن مناصب الحكومة التي يستحقها وبقي في هذه الوظيفة الى ان جُعل ترجمانًا لي وللحال عرفت مقدرتهُ وانهُ اهلٌ لاي وظيفة كانت مهما كانت سامية واخبرت محمد علي عنهُ فامر بتعيينهِ معاونًا في مصلحة الزراعة ثم اعطاهُ رتبة قائمقام ولو كان تركي الاصل لاعطاهُ رتبة باشا

وقد اطلعني هذا الشاب على ما يقاسيهِ ابناء وطنهِ من الذل والعناء وعدم انصاف المتعلمين منهم لانهم من الفلاحين اصلاً لا لسبب آخر فرأيت من كلامهِ ان جرثومة الحزب

الوطني غُرست في النفوس غرسها العلم من جهة والجور من اخرى فان الوطنيين الذين فتح العلم عيونهم رأوا ان حقوقهم مهضومة فتجاسر كبار النفوس منهم على المطالبة بها ولو همساً في الآذان ورأوا بين اعيان الفلاحين مَن يسمع لشكواهم و يرثي لبلاهم فنمت الكراهة للحكام الاجانب في نفوسهم . وتركت خدمة محمد علي بعد خمس سنوات واخذت اشتغل وحدي بزرع القطن والتجارة فزاد تعرفي بالفلاحين واحوالهم

وتوفي محمد علي سنة ١٨٤٩ وكان ابنهُ ابرهيم باشا قد خلفهُ على سرير مصر وتوفي قبلهُ وهو يشبههُ في الهيئة ولكنهُ كان اكبر منهُ جسماً واكثر شبهاً بالشراكسة لان امهُ شركسيَّة وكان شديد الذكاء مثل ابيهِ لكنهُ لم يكن حليماً مثلهُ فكرههُ الفلاحون . وخلفهُ عباس باشا ابن اخيهِ وكان حليماً محبًّا للفلاحين والفلاحة مقتصداً في نفقاتهِ لا ينفق الاَّ على المباني والخيل وهو اول من فتح مصر للتجارة

وقد عاملتهُ وعرفت مهارتهُ في ادارة الاشغال التجارية لاني كنت اورِّد بزرة القطن الى تفتيشهِ في الوادي قرب التل الكبير . وكان الفلاحون يحبونهُ لعدلهِ والبدو يحبونهُ لحبهِ لهم ولخيلهم . و بعث بكثيرين من الشبان الى فرنسا وانكلترا ليتعلموا فيهما لكنهُ لم يستطع ان يجمعهم و يستعمل مواهبهم وعلومهم بعد رجوعهم الى وطنهم . ومات ولم يترك ديناً على الخزينة بل ترك ثروة واسعة لوارثهِ الهامي باشا واستدان مرة ٣٨٠٠٠٠ جنيه لكنهُ اوفاها في سنوات قليلة ولولا سيرتهُ الشخصية لكان من افضل ولاة مصر

وخلفهُ عمهُ سعيد باشا سنة ١٨٥٤ وامهُ شركسية وقد تعلم عند معلمين من الفرنسويين ليكون بحريًّا وهو اول من اعتمد على الاوربيين في ادارة اعمالهِ ووثق بهم وكان كريماً متلافاً حليماً برًّا بالفلاحين الاَّ انهُ كان يكره البدو وقد حاول ان يصرفهم عن البداوة الى الحضارة ونكَّل بهم . وعزز الجيش وانفق عليهِ النفقات الطائلة وهو اول من رقى الفلاحين الى المناصب العالية في الحربية وفي جملتهم عرابي وطلبه فاستعزَّ الحزب الوطني بهِ . وخفَّف الضرائب والغى الفردة فنجحت البلاد في ايامهِ ونمت ثروتها . وفي ايامهِ كثر ورود الاوربيين الى البلاد واخذهم الامتيازات فيها وانشائهم الشركات . وهو الذي اعطى المسيو دلبس الامتياز بحفر ترعة السويس وكأنهُ فعل ذلك اغاظة للسلطان عبد العزيز ولما قاومهُ السلطان وعاونتهُ انكلترا على ذلك استعان عليهما بفرنسا وهو اول من استدان من الماليين الاوربيين لكنهُ ترك في خزينتهِ جانباً كبيراً من الاموال التي استدانها

وخلفهُ اسمعيل باشا وهو ابن ابرهيم باشا وقد جاء مهمازاً ايقظ الفلاحين من سباتهم

فجعلوا يثنون و يشكون . وكان ذكيًا يجامل الاوربيين فيتودّدون اليهِ ويتملقونهُ . عرفتهُ تمام المعرفة لكنهُ كان يكرهني لاني كنت صديقًا لاخيهِ مصطفى وعمهِ حليم . ولما انتهت الولاية اليهِ ظنّ الاوربيون الذين لا يعرفونهُ انهُ افضل كل سلفائهِ لكنهُ لم يكن كذلك وكان عيبهُ الاكبر حبُّهُ للمال وكانت لهُ اساليب مختلفة لجمعهِ والتفّ عليهِ رجال مختلفون علّموهُ كيف يحصّل الاموال الطائلة على اساليب لم تكن معروفة في بلاد المشرق وفي مقدمتهم راغب واسمعيل صديق ونوبار وكان اسمعيل صديق امهرهم وهو عربي مغربي الاصل كان في اول امرهِ عند عباس باشا على خيلهِ في شبرا والمطرية وكان مغرمًا بالخيل مضيافًا على جاري عادة العرب كريمًا متلافًا محبًّا لبلادهِ لكنهُ اضرّها اكثر من كل احد سواهُ ما خلا اثنين. وكان يكره الاتراك والاوربيين و يبذل النفس والنفيس في خدمة مولاهُ . وهو الذي مكّن اسمعيل باشا من ابتزاز ما ابتزهُ من اموال الفلاحين واملاكهم في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة من ولايتهِ . كان متوسط ضريبة الفدان في عهد سعيد باشا اربعين غرشًا فرفعهُ رويدًا رويدًا حتى بلغ مئة وخمسين غرشًا واعاد الفردة اي مال الاعناق واستنبط ضرائب جديدة واخترع مال المقابلة حتى لم يبقَ للفلاحين شيء وهبط ثمن الاطيان حتى كسدت ولم يعد احد يشتريها. ولم يحصِ احد مقدار الاموال التي اخذها اسمعيل صديق من الفلاحين لكنهُ كفّر عن ذنبهِ اخيرًا بمقاومتهِ مولاهُ في امر مالي طلبهُ منهُ لانهُ رآهُ يفضي الى تسليم البلاد للاجانب فكانت عاقبة مقاومتهِ ما هو معلوم من امرهِ

ومن رأيي ان مسؤولية الدين المصري يقع اكثرها على نوبار باشا بعد اسمعيل باشا وانهُ هو الذي جعل اسمعيل باشا يعترف بامتياز ترعة السويس وهو سبب التصفية وكل الاعمال المالية الكبيرة واليهِ ينسب نقاطر الماليين الى القطر المصري وانشاء البنوك فيها واعطاء الامتيازات للاجانب ورهن املاك الحكومة ووضع المراقبة الثنائية وانشاء المحاكم المختلطة

وهذا الانقلاب العظيم في احوال البلاد اثّر في اهاليها تأثيرًا كبيرًا فقد رأيتهم في عهد محمد علي كالانعام يحرثون ارضهم ويزرعونها ولا يسألون عن شيء آخر وقد ضربت عليهم الذلّة لكن لم تخلُ البلاد حينئذٍ من اناس قلائل تعلموا في اوربا وجعلوا يخبرون الذين حولهم سرًّا عما رأوهُ فيها من الحرية . وجاء عباس فكان عطوفًا على الفلاحين محبًّا للبدو فانتعشت نفوس الفريقين وجاء سعيد فخفف الضرائب وقوّى الآمال بالنجاح

وسنة ١٨٦٤ هبط ثمن القطن بغتةً وزادت الضرائب فساءت احوال الفلاحين جدًّا ثم تيسّرت بين سنة ١٨٦٦ و ١٨٦٩ بسبب الاموال التي أُنفقت على انشاء ترعة السويس

فلما تمت الترعة عادت الازمة فاشتدت واستحكمت حلقاتها ولم يعد الفلاحون قادرين على ايفاء الضرائب فجعلوا يستدينون الاموال بالربا الفاحش ولما حلّ ميعاد ايفائها اضطروا الى الايفاء تحت الكرباج او الى ان يستدينوا بربا اكثر كثيراً حتى لقد استدان بعضهم المئة بمئتين . ولما انشئت المحاكم المختلطة صارت اطيان الفلاحين ترتهن وتباع لايفاء الدين حتى لم يعد في الطاقة احتمال تلك الحالة

وجاء البلاد حينئذٍ السيد جمال الدين الافغاني وهو من متخرجي مدارس بخاري ودهلي وكان شاباً جميل المنظر حسن الطلعة طلق اللسان فصيح العبارة فالتفّ حوله جماعة كبيرة فدلهم على اسباب شقائهم ولامهم على تحمُّل الضيم وهم من العرب الكرام وحثهم على احراز العلم وطلب الاستقلال وكان في اول امرهِ يكلم الناس خفية خوفاً من اسمعيل باشا ثم زادت مجاهرتهُ رويداً رويداً ولم ينلهُ مكروه فاخذتهُ الجرأة لما خلع اسمعيل باشا فاخرجتهُ الحكومة المصرية من بلادها

وحتى ذلك الوقت كانت هذه الافكار محصورة في الطبقة العليا من الشعب ولم تصل الى العامة لكن قام في ذلك الحين رجل اوصلها اليهم وهو اسرائيلي مولود في القاهرة ومحتمٍ بالحماية الايطالية يحسن العربيَّة تكلماً وكتابةً لكنهُ اختار اللغة العاميَّة لكي يصل الى عامَّة الشعب وكان يعرف الايطالية والفرنسويَّة والانكليزيَّة . كان في اول امرهِ مدرساً في المدرسة الحربيَّة بالقاهرة وقد علم فيها كثيرين من الشبان الذين صار لهم بعدئذٍ شأن في الثورة العرابيَّة وهذا سرُّ انتشار روح الثورة بين ضباط الجيش . ولما رأى ان كلمتهُ مسموعة وآراءهُ مقبولة تجاسر ونشر جريدة هزليَّة مصورة انتقد بها اعمال الحكومة على اسلوب هزلي وبلغة عاميَّة ووزعها سرًّا فتداولتها الايدي وطربت لها النفوس

وهنا دخل الخادم وقال الغداء حاضر ففتح ابرهيم بك ساعتهُ ووجد الساعة واحدة بعد الظهر فنهض وقال هيُّوا بنا الى الطعام وسنعود الى هذا الموضوع في فرصة اخرى . وسار امامنا الى غرفة المائدة ثم ادخلنا امامهُ واجلسنا عن يمينهِ وعن يسارهِ واعتذر الينا عن غياب ابنتهِ ورفيقتها بانهما ذهبتا الى بيت مرسي خادمهم وشاركتا اهلهُ في المأتم ورجعت السيدة نزهة مصابة بصداع شديد وكأن ندب النادبات ذكَّرها بامها فبكت كثيراً فاعتراها الصداع

ولما قال ذلك رأينا الدموع تجول في عينيهِ فاطرق رأسهُ وصمت وحينئذٍ دخل الدكتور يوسف وتنفَّس الصعداء فقلت لهُ مالك فقال التحقيق في المركز والمديرية ازهقا نفسي فقال المستر مكنزي وكيف ذلك فاخذ الدكتور يوسف يقص علينا ما جري

الفصل السادس

تحقيق البوليس والنيابة

قال الدكتور يوسف مضينا الى مركز سنورس وجثة القتيل معنا وحضر مأمور المركز وطبيبهُ وعضو النيابة وتلي اولاً محضر تحقيق معاون البوليس وهو هذا بعبارتهِ البليغة وقد نسختهُ لاطلعكم عليهِ

انهُ في يوم ٧ يناير سنة ١٩٠٧ بناحية سنهور الغربية نحن احمد حسن معاون بوليس نقطة ٠٠٠٠ اقرر ان غفير الدورية المسمَّى مصطفى ابو عمه حضر الينا في يوم تاريخهُ الساعة ١١ افرنجي ليلاً وابلغنا انهُ كان جالس مع رفاقه بقرب عزبة الياس حيث عُلم لهم ان الشقي ابو سعدان ومنصره عازمين على السطو فسمعوا عيار ناري من جهة بحري خارج من زراعة القصب الساعة ٩ افرنجي ليلاً فاسرعوا الى محل الواقعة ولما رأوهم اللصوص هربوا منهم فاطلقوا عليهم عدة عيارات نارية فاصابوا الشقي المدعو ابو سعدان فوقع وقبل ان يصلوا اليهِ ويمسكوهُ حملهُ رفاقهُ وهربوا فتبعوهم ولم وقفوا لهم على اثر وعادوا الخفراء فوجدوا ان اللصوص قتلوا رجل كان راجع من الغيط الى البركة وهو خادم في بيت ابرهيم بك لبيب من اهالي الفيوم الذي كان وقتها هو وعائلته ناصبين خيامهم عند البركة وحضر ابرهيم بك واولاده ورأوا المقتول وعرفوهُ وقالوا ان اسمهُ مرسي . وللحال قمنا وبرفقتنا اثنين عساكر وحضرنا مع الخفير الى محل الواقعة فوجدنا الخادم مرسي مطروح على الارض وحوله الخفر ومعهم ابرهيم بك لبيب وابنهُ الدكتور يوسف لبيب فكشف عن المقتول امامنا وقال ان الاصابة في جنبه الايسر وانهم كلهم كانوا نازلين في خيامهم عند البركة فسمعوا الطلقات النارية وحضروا الى محل الصوت ولم رأوا احد من اللصوص ولكن رأوا الخفر فقط ورأوا ان المقتول هو خادمهم . وقد نقلنا المقتول الى ديوان المركز واحضرنا حكيم المركز بالامر وقفل المحضر حيث كانت الساعة ثلاثة بعد نصف الليل

ثم كتبوا محضراً آخر عمَّا تمَّ في المركز ودعيت اليوم الى المديرية وأُعيد التحقيق ثانيةً وبلغني انهم قبضوا على القاتل ولكنهُ انكر كل ما نُسب اليهِ تمام الانكار ولا اعلم كيف تنتهي هذه الامور وقد تقوَّضت دعائم الامن العام

فقال المستر مكنزي هذه مسألة أُخرى احب ان البحث فيها

فقال الدكتور يوسف ابي كطبيب لا اجيز البحث في المسائل السياسية على الطعام . فقلت لهُ احسنت ووافقني رياض على ذلك وقال ابرهيم بك اننا نازلون الى مصر بعد اسبوعين فشرفانا فاتمم لكما حديثنا السابق

الفصل السابع

صادف قلباً خالياً

لم نكد نتم الغداء حتى هرولنا الى المحطة ومعنا رياض افندي واطلّت السيدة نزهة من شرفة (بلكون) البيت لوداعنا وهي ممسكة رأسها بيدها ودعت لنا بالسلامة وامّلت ان نرانا في القاهرة بعد اسبوعين او ثلاثة . ونزلت رفيقتها لوداعنا ايضاً وطلبت من المستر مكنزي على انفراد ان لا يرشد اباها اليها مهما لجّ في الطلب وقالت لهُ انها ستحاول بكل جهدها لكي تخفي خبرها الى ما شاء الله . فوعدها خيراً

ودخلنا مركبة واحدة وسار بنا القطار يطوي صدور الارض على اعجازها فاطللت من الكوة استنشق نسيماً لطفتهُ حرارة الشمس ولم تزد في حرارتهِ واحاول ان امحو من مخيلتي صورة ارتسمت فيها وصوتاً رنّاناً طرق اذنيَّ ساعة الوداع وكنت اراني كمن يتهم نفسهُ بجريمة ثم يدفع التهمة بحجة يرى ضعفها

ثم ان تلك الصورة اعادت الى مخيلتي صوراً أُخرى ارتسمت فيها وانا لم انتبه لها فتمثلت امام عيني حينئذٍ تلك الفتاة وهي تجادلنا وتقول انها من نسل القواد الرومانيين او اليونانيين الذين أقطعوا بلاد الفيوم وان بحيرة قارون كانت تغطي اكثر البلاد . ثم تصف المروج والبحيرة والجبال والتاريخ القديم ومن قام فيهِ من الملوك العظام . والنسيم يعبث بشعرها المتموج على رأسها ويلثم خديها المتوردين من توقد ذهنها وكبر نفسها . وتتوالى سلسلة الصور كأنها في آلة السينامتوغراف الى ان تصل الى الصورة الاخيرة وهي واقفة في شرفة البيت وقد امسكت رأسها بيسراها واشارت الينا بيمناها اشارة الوداع

اجتاز القطار الاراضي الزراعية على حدود الفيوم ودخل ارضاً بعضها بور وبعضها مزروع . والبور رمال قفراء قاحلة على ما يظهر والمزروع كان قاحلاً مثلها ولكن ماء النيل احياهُ ومكروبات الزراعة جلبت اليهِ الغذاء من الهواء فكساهُ البرُّ ثوباً سندسيًّا . ثم انقطعت الزراعة ولم نعد نرى الاَّ كثبان الرمال وقد نصبت فيها الحواجز لكي لا تعبث بها الرياح وتطمر بها الطريق

وفتح كلٌّ من المستر مكنزي ورياض افندي كتاباً وغاص فيهِ وتركاني اجادل نفسي واحاول التسلية بمناظر الطبيعة فاراها ممزوجة بالصور الخالية الراسخة في ذهني . وبعد قليل تقلص ظلُّ الصحراء واشرفنا على ارض سوداء ومروج خضراء وترع ممدودة كبطون

الافاعي الأ انها مستقيمة . وعزب منشورة كالحبب على وجه الماء الأ انها مستديمة . وهل مثل المديريات الوسطى بعد المشروعات المستجدة ارض ترابها تبر وحبها ذهب . ولقد اجاد من قال

اذا الارض ادّت ريع ما انت زارع من البذر فيها فهي ناهيك من ارضِ

ولكن كم يكون شأنها اذا ادّت ربعين او ثلاثة فلا عجب اذا بلغ ثمن الفدان في تلك الجهات مئة وخمسين جنيهاً بعد ان كان بالامس عشرة جنيهات او حواليها

وهل خطر على بال احد ان بيوت الطين التي يبنيها النمل في بلاد الحبشة لكي يخزن فيها طعامهُ ويربي صغارهُ تهدمها الامطار وتجرفها السيول فتحملها الى النيل وهو يأتي بها على منكبيهِ ويبسطها في ارض مصر ابليزاً يزيد بهِ خصبها وغذاءً لما يزرع فيها وينبت منها

حاولت ان اسلي نفسي بهذه الخواطر عن شاغل شغل بالي وهمٍّ جديد كنت منهُ خالياً فصيحَ فيَّ قول من قال

اتاهُ الهوى من قبل ان يعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

همست بهذا البيت وكدت اضحك على نفسي استخفافاً لكن اخذتني الرعدة كمن يقف في هيكل مستخفًّا مستهزئًا ثم لا يلبث ان يشعر بهول الموقف فيعتريهِ الاضطراب والوجل لئلاَّ يكون قد اهان من يعبد في ذلك المكان . فانبسطت وانقبضت وتهللت واضطربت في وقت واحد . وما اكثر مخادع النفس وما تحويهِ من الانفعالات . وبينما انا فلق التمس حيلة تصرفني عما انا فيهِ اذا بالمستر مكنزي يقول ما اضعف هذا النور قال ذلك واطبق كتابهُ فاقتدى بهِ رياض افندي وتهيأ للحديث فجلست والتفت اليهما وقلت ما اخصب هذه الارض وما اوفر خيراتها اتدري يا مستر مكنزي كم ايجار الفدان هنا

فقال لا اعلم ولكن بلغني انهُ نحو ثمانية جنيهات

فقلت نعم وقد يبلغ عشرة او اثني عشر او اكثر . وكم ايجار الفدان في بلادكم

فضحك وقال انهُ لا يذكر وقلما يبلغ جنيهاً واحداً

فقال رياض ولماذا ألا تغلُّ الارض عندكم كما تغلُّ عندنا فقد قرأتُ في كتب الزراعة ان متوسط غلة القمح عندكم اثنان وثلاثون بشلاً او نحو ستة ارادب . والارض التي تغل عندنا ستة ارادب من القمح تحسب ارضاً جيدة ويؤجر فدانها بثمانية جنيهات

فقال المستر مكنزي ان الفرق كبير بين ارضنا وارضكم فاولاً ان تبن القمح قليل جدًّا عندنا ولا فائدة منهُ ونحن لا ندرس القمح درساً يفتت اصولهُ ويصيرها تبناً وثانياً اننا نزرع الارض سنة ونهملها سنة اي نتركها مرعى للمواشي وثالثاً ان الارض لا تغل هذه

الغلة الاَّ اذا سمدناها بالسماد الغالي الثمن ورابعاً وهو الامر الاهم ان اجرة العمال عندنا غالية جدًّا فاجرة الحارث لا تقل عن خمسة عشر غرشاً في اليوم وكذلك اجرة الحاصد والدارس فيذهب اكثر الدخل اجرةً للعمال ولذلك يضطر صاحب الارض ان يكتفي بالايجار البخس

فقال رياض ولكن المال الذي تدفعونهُ للحكومة طفيف جدًّا لا يذكر بالنسبة الى ما ندفعهُ نحن فان مال الفدان من هذه الارض لا يقل عن جنيه في السنة

فقال المستر مكنزي نعم وهذا فرق كبير ولكنهُ ليس شيئاً في جنب أُجرة العمال

ولم يلذ لي هذا الحديث مع انني كنت التذُّ بامثالهِ عادةً وبكل ما فيهِ بحث في معايش الناس فقمت وخرجت ومشيت نحو غرفة الماء فغسلت وجهي وعدت ودخلت مخدعاً غير المخدع الذي كنا فيهِ فرأيت ما اقشعرَّ لهُ بدني رأيت رجلاً ملقىً في ارض المخدع والدم يشخب من جنبهِ فوقفت لا ابدي حراكاً وحاولت ان اصرخ وانادي احدًا فانقطع صوتي وصرت انظر الى نفسي لأرى أفي يقظة انا ام في حلم ثم اقفلت باب المخدع وهرولت الى رفيقيَّ لاخبرهما واذا بصوت صمَّ اذنيَّ فوقعت مغمًى عليَّ ولم اعد اعي على شيء

الفصل الثامن

النجاة العجيبة

ومَن كانت منيَّتهُ بارضٍ فليس بموت في ارض سواها

مضى عليَّ شهران وانا في هذا المستشفى وقد عادني فيهِ المستر مكنزي مرارًا وعادني ايضاً ابرهيم بك واولادهُ كلهم حتى السيدة نزهة. لا ابعد الله المرض اذا كان وسيلة لمشاهدة الاصدقاء والاحباء وعطفهم على المريض لكني مريض قلباً لا جسدًا ورحم الله مَن قال

ولما اشتكت من صدرها علة الاسى وقالت ألا فانظر الى مصدر الامرِ
فقلتُ لها كفّي الشكاية واعلمي فهيَ علة في القلبِ لا علة الصدرِ

أُنقذتُ من بين القتلى والجرحى كما انقذ غيري وانا فاقد الرشد لا اعي على شيء وبقيت غائباً عن الصواب بضعة ايام بارتجاج اصاب دماغي وهو لطف من المولى لكي لا اشعر بالألم الشديد من انكسار يدي ورجلي ويا حبذا لو اتم لطفهُ فانقذني من كسر اليد والرجل ايضاً كما انقذ رفيقيَّ رياضاً والمستر مكنزي فانهما خرجا بصدوع طفيفة شفيا منها بعد ايام قليلة. ومن الغريب اني لم اسمع شيئاً عن القتيل الذي شاهدتهُ في القطار قبلما أُغمي عليَّ بل حُسب

بين القتلى الذين قتلوا قضاءً وقدرًا بخروج القطار عن الخط وانقلاب مركباتهِ بعضها فوق بعض . ولا شبهة عندي الآن ان اليد الاثيمة التي قتلت ذلك الرجل كان لها شركاء وضعوا خشبة كبيرة في طريق القاطرة فاصطدمت بها وتدهورت في الترعة التي الى جانب الطريق وارتمت المركبات فوقها

مَن هو ذلك الرجل . فتشت بين اسماء القتلى فلم اجد اسم احد اعرفهُ . والقتلى والجرحى ثلاثة عشر وهوعدد مشوم في ما يقولون ولكنهُ قليل جدًّا بالنسبة الى عدد الركاب . ولعلهم لم يذكروا الاَّ اسماء الذين قتلوا حالاً او كانت جروحهم بالغة مثلي لاني لم ارَ بينها اسم المستر مكنزي ورياض لكن من هو ذلك القتيل . من حين وعيت من اغمائي وانا اسأل نفسي هذا السؤال ولكنني لم اتجاسر ان اسألهُ لغيري ولا سمح لي الجراح ان امسك القلم بيدي واكتب الاَّ اليوم فكتبت هذا السؤال على الورق واطلعت عليهِ جسمًا اصمَّ ابكم لا يسمع ولا يتكلم . الم يرَ الاطباء الذين شاهدوا القتلى قبل دفنهم ان بينهم قتيلاً قتل صبرًا بخنجر خرق فؤادهُ . او لعلَّ المركبة انكسرت بهِ فتهشم بدنهُ ولم يعد يظهر انهُ مقتول بخنجر . ولكن من هو القاتل ولماذا قتلهُ . هذا سرٌّ غامض وسيبقى غامضًا الى حين تكشف السرائر وتعلم الضمائر ولا احد يعلم ان ذلك الرجل قتل قتلاً غيري وغير قاتلهِ وقد يكون قاتلهُ بين قتلى الركاب وعند الله يجتمع الخصوم

وصلتُ الى هنا ودخل الخادم وقال ان ابرهيم بك آتٍ لعيادتي فدخل وسرَّ لما رآني استعمل يدي وقال عسى ان تمشي على رجلك قريبًا فقلت عسى ولكن لا اظن اني انجو من العرج ثم ضحكت فقال ما يضحكك قلت ليس على الاعرج من حرج

ثم قلت لهُ هل انتهى التحقيق في مسألة خروج القطار عن الخط ووقوعهِ وهل عُرف السبب الذي اخرجهُ عن الخط

فقال لقد ثبت من اول الامر ان القطار خرج بفعل فاعل لانهم وجدوا في طريقهِ خشبة كبيرة معترضة ولكن لم يعلم حتى الآن من وضعها هناك لاسيما وان تلك الجهة خالية من السكان . ثم اكتشفوا امرًا قد تكون لهُ علاقة بالحادثة وهو انهُ كان مع احمد بك خليل احد القتلى مبلغ كبير من المال نقود واوراق مالية ثلاثة آلاف جنيه او اكثر وهذه كلها فقدت ولم يوقف لها على اثر ولا يعلم الآن هل وجدها احد مع القتيل فاخفاها او هل عرف الاشقياء ان مع ذلك الرجل مبلغًا طائلاً من المال فوضعوا الخشبة في طريق القطار حتى يقع ثم هجموا عليهِ وسلبوا ما معهُ

فقلتُ لهُ هل تعرف احمد بك خليل الذي كان معهُ المال

فقال نعم اعرفهُ تمام المعرفة

فقلتُ لهُ هل يمكنك ان تصفهُ لي

فقال هو كهل طويل القامة قصير اللحية وقد كان في المركبة التي كنتم فيها في المخدع الاول منها وانتم في الثالث . ولماذا تسألني هذا السؤال

قلت خطر لي خاطر ولم اكن اظن ان الامن مفقود الى هذا الحد ففي اقل من اسبوع يقتل قتيلان في مديريتكم

فقال مَن هما

قلت خادمكم والرجل الذي قتل في القطار . ولما قلت ذلك شعرت اني اخطأت ولكن سبق السيف العذل

فقال من هو هذا القتيل الثاني

قلت احمد بك الذي نقول ان اللصوص قتلوهُ لما وقع القطار

فقال لم اقل ان اللصوص قتلوهُ ولكن اذا ثبت ذلك فلا يكون في مديريتنا بل في بني سويف

قلت لا فرق في ذلك ومرادي انهما قتلا في اسبوع واحد وفي مكانين متقاربين وماذا جرى في امر خادمكم

قال لم يجرِ شيءٌ حتى الآن غير التحقيق وقد قبضوا على القاتل ولكنهُ انكر وأُحيلت اوراق القضية على محكمة بني سويف . ولكن لماذا تظن ان احمد بك قتل قتلاً بفعل فاعل

فوقعت في حيص بيص ولم اعلم بماذا اجيبهُ ولكن حدث حينئذٍ ما اخرجني من حيرتي دخل ابنهُ الدكتور يوسف ومعهُ اختهُ وقد اتيا لعيادتي او لزيارتي لاني لم اكن مريضاً ودنت السيدة نزهة مني وسلّمت عليَّ مصافحةً فمددت لها يدي اليمنى فابرقت اسرَّتها وقالت بالانكليزيَّة جود جود اي حسناً حسناً صرتَ تستعملها

فقلت وقد كتبت بها اليوم نحو ساعتين

فقال الدكتور يوسف لا تتعبها كثيرًا . ثم جسَّ مكان الكسر وحرَّك اصابعها وادارها ذات اليمين وذات اليسار وقال صارت سليمة تماماً ولكن لا تتعبها

فقلت لهُ اين مس برون فاني لم ارَها منذ اسبوعين

فقالت السيدة نزهة انها تسلّم عليك وكانت عازمة على المجيء معنا ولكن اتى المستر

مكنزي وطلب منها ان تذهب معهُ لزيارة بعض المعارف

فقلت اني استغرب الفة مكنزي لهذه الفتاة فان خاصة الانكليز لا يعاشرون عامتهم وهو من اخص خواص الانكليز واخوهُ لورد مكنزي عرضت عليهِ وزارة فرفضها فكيف يتنازل ويعاشر هذه الفتاة

فالتفت الدكتور يوسف الى اختهِ والتفتت هي اليهِ وقال ابوهما اني مثلك في الاستغراب وقد سألت عن المستر مكنزي فقيل لي انهُ من افضل الرجال واكثرهم تهذيباً وعلى كل حال نحن مسؤلون عن هذه الفتاة

وقال الدكتور يوسف ان الغربة توجب الالفة على حد ما قيل " وكل غريب للغريب اليف " . ومع ذلك فاني ارى المستر مكنزي يهتمُّ بها اكثر مما يهتمُّ بها غيرهُ من رجال الانكليز وقد اقنعها يوم الاربعاء الماضي فذهبت معنا الى السبق في الجزيرة ورأيتهما هناك وحدهما اكثر الوقت ولم ارَ احداً غيرهُ يكلمها او يهتمُّ بها

فقالت السيدة نزهة انها لا تحبُّ ان تكلم احداً من الانكليز فقد زارنا كثيرون منهم وكنت الجُّ عليها لتخرج معي الى غرفة الاستقبال وتقابلهم فلم ترد والظاهر انها تعرف المستر مكنزي منذ زمن طويل وقالت لي ان خطيبتهُ صديقة لها وكانت معها في مدرسة واحدة

فقلت اذاً المستر مكنزي خاطب

فقالت نعم ارح بالك . وابتسمت ابتساماً فهمت مغزاهُ

فقلت ان بالي مستريح من هذا القبيل ولكن الدكتور يوسف احرى بان يريح بالهُ

فقال الدكتور يوسف حقاً لم اكن اعرف ان المستر مكنزي خاطب مع اني كنت استبعد انهُ يخطب مس برون لما اعلم من بعد المقام بينهُ وبينها

فاحتدمت السيدة نزهة غيظاً وقالت هل هو احسن منها فشروان كان ابن لورد فاني لم ارَ بين كل فتيات الانكليز فتاة الطف منها ولا اكثر تهذباً وكلاكما لا يجد مثلها ولو فتش المسكونة

ونظرت اليَّ وضحكت فتضاحكت رغماً عني لاني شعرت كأنها لطمتني بيدها او رفستني برجلها ولكنني جمعت قواي وحاولت تغيير الموضوع فقلت سمعت مرةً مثلاً يقول من تزوج من غير ملتهِ وقع في غير علتهِ ومالنا ومالها هل اتممت حديثك يا ابرهيم بك للمستر مكنزي عن الثورة العرابيَّة

فقال لا ونحن منتظرون حتى تشفى وتشاركنا فيهِ فمتى تظن انك تستطيع القيام والمشي على رجلك

فقلت اني الآن استطيع القيام والمشي على العكازة ولكن يصعب عليَّ نزول السلالم . وقد قال لي الجراح اليوم اني استطيع النزول بعد اسبوع او اسبوعين . ولكن هذه الحادثة خسرتني كثيرًا فان الناس كلهم اشتغلوا وربحوا وانا مطروح على هذا الفراش

فقال ابرهيم بك اشكر ربك من هذا القبيل لان الناس جنُّوا كلهم من كبيرهم الى صغيرهم اشتروا متر الارض الزراعية بخمسة جنيهات والاراضي التي خططوها للبناء تسع ثلاثة اضعاف اهل مصر ولا يمكن ان تبنى كلها من الآن الى مئتي سنة ولو بقيت زيادة السكان سائرة على هذا النمط

فقالت السيدة نزهة ومع ذلك نرى ان الجميع قد ربحوا حتى النساء فاني اعرف سيدة اشترت وباعت واشترت وباعت فربحت اكثر من ثمانية الآف جنيه وعندها الآن ارض اشترت مترها بثمانية عشر جنيهاً وقد عرضوا عليها ثمن المتر ثلاثين جنيهاً فلم تبع وعندها الف متر فتربح بها اثني عشر الف جنيه

فقال لها ابوها انها تكون مجنونة اذا لم تبع وقد فهمت من تعنين ولكن كان المتر هناك لا يساوي خمسة جنيهات منذ سنة من الزمان فماذا جرى الآن حتى صار يساوي ثلاثين جنيهاً واذا هبط غدًا الى خمسة جنيهات او الى عشرة فتكون قد خسرت كل ما ربحتهُ وخسرت فوقهُ . وما ادرانا انها لم تشترِ اسهماً بربحها كلهِ وقد اخذ ثمن الاسهم في الهبوط من الآن ولو كانت اراضي البناء حافظة مركزها

فقلت كيف احوال شركة قارون

فقال انهم اصدروا السهم بعشرة جنيهات فارتفع حتى بلغ ستة عشر وعاد الآن الى اربعة عشر جنيهاً وهي احسن من غيرها لانها صناعيَّة زراعية وهم لم يأخذوا الاَّ القسط الاول حتى الآن واظن انهم حينما يطلبون القسط الثاني تهبط الى ثمنها الاساسي او الى ما دونهُ فقد ابتدأ الناس يشعرون بشيءٍ من الضيقة المالية والافكار مضطربة نوعًا من جهة السياسة فان فريقًا من حزب الاحرار لا ينفك عن التنديد بافعال الانكليز في مصر والناس هنا مغرورون باقوالهِ كما انغروا قبيل الثورة العرابيَّة والحال الآن كما كانت حينئذٍ حذو النعل بالنعل

فقالت وما هو رأي امين افندي

فقال هو اشد طيشًا منهم وقد انضم الى الحزب الذي لا بدَّ من ان يوقع البلاد في مهلك ولا اعلم لمن طلع هذا الولد اظنهُ لخالهِ فان دمهُ لا يزال فائرًا مثلهُ

فقالت السيدة نزهة لا يحس بالشاب الاَّ ان يكون مقداماً مقتحماً وقد يكون امين متهوراً بعض الشيء ولكنَّ التهور خير من الخمول

فقال لها ابوها وانتِ ايضاً مثل خالك مع ان امكِ كانت ملاكاً. قوموا بنا فقد اتعبناهُ كثيراً

فنهضوا كلهم وانا الحُّ عليهم بالبقاء لاني مسرور بهذا الحديث جدًّا وفي الواقع اني كنت مسروراً ولا سيما لما احندت السيدة نزهة وتوردَّت وجنتاها لكنني لم استطع ان اصرفهم عن عزمهم فودَّعوني مصافحة وتركوني وحدي انا وافكاري اراجع ما سمعت وما رأيت فاشعر بالانبساط مرَّة وبالانقباض أُخرى واجمعت رأيي اخيراً على ان هذه الفتاة خير من رأيت وانني اذا علمت انها تحبني كما احبها كملت سعادتي ان صحَّ ان تكون في هذه الدنيا سعادة كاملة

زهره — جرى ايه ياخويه جرى ايه قال تركوا القاتل وما عرفوش ياخدوا منو لا حق ولا باطل

احمد — أهو تركوه وضحك عليهم وبكرا تسمعي انو غلَّب البلاد

زهره — دول ولاد قال عمل حالو اطرش ما بيسمعشي . وعمل ايه المحامي عن مرمي

احمد — يعمل ايه ان كانوا عايزين يخلصوهُ. وقال ما عجبنهش التحقيق اللي جرى في الفيوم

زهره — الظاهر عطالو كم نص

احمد — لا ما فيش حاجة ولكن صارت الدنيا فوضه الله يهوِّنها

زهره — مسكين مرسي راحت عليهِ ومساكين مراتو وولاده

احمد — الدوره علبيروح اهو ستي نزهه تساعدهم شيعت حسين وفاطمه للكتاب وامهم بتخدم هون وهون حتى يرزقها بابن حلال والدوره علبيروح

زهره — ومالها ستي برون ما عادتش تضحك مثل عادتها

احمد — من وقت ما جاء الراجل الانكليزي اللي اسموا مكنزي صارت نوع . هم يعرفوا بلسان بعض وستي نزهه بتروح كتير لعند الخواجه اللي كسر رجلو وايدو

زهره — اصلو كويس وكريم ادَّالك كم

احمد — ادَّاني ريال

زهره — وانا ادَّاني ريال

الفصل التاسع

كشف غامض

جاء في الدكتور عبد الله الجرّاح الشهير صباح اليوم وقال لي اكلنا امس حلوان شفائك فمتى تطعمنا حلوان الخطبة والزيجة

فقلتُ لا زيجة ولا خطبة فقد جاوزت السن الذي يرضي السيدات او تؤثر فيهِ عوامل الحب

فضحك وقال على مَن تخفي امرك ألا تدري اني وقفت على كل ما يخالج ضميرك ويكنّهُ قلبك

فقلت كيف ذلك وما معنى هذا الكلام

فقال قد لا يجوز لي ان اجاهر بما سمعتهُ منك لاحد غيرك لانني سمعتهُ وانت غائب عن الصواب تحت فعل البنج . ومن المرجح انك لو كنت واعياً لاخفيت ما ابديتهُ حينئذٍ ولكن لم اكن انا وحدي بل كان معي الدكتور يوسف اخو السيدة نزهة ولا بدّ من ان يكون قد اطلع اختهُ على كل ما سمعهُ منك

فلما قال هذا القول اسودّ الضياء في عينيّ وتنازعتني افكار كثيرة ولكنني تجلّدت وقلت في نفسي انهُ يجدر بي ان اعرف ما قلتُ قبل ان ابني عليهِ حكماً . فقلت لهُ بالله قصّ عليّ واقعة الحال واخبرني بكل ما جرى وكل ما قلتهُ

فقال لما اعطيناك البنج (الكلوروفورم) لكي نجبّر رجلك اخذتَ اولاً تنادي امك وتبكي والظاهر انك تصورتها اجابت نداءك واتت اليك من عالم الغيب فجعلتَ تشكو اليها ما تلاقيهِ من متاعب الحياة واخيراً قلتَ لها انك وقعت في وهدة اليأس وليس لك احد يهمك امرهُ في هذه الدنيا الاّ الفتاة التي رأيتها في الفيوم وعلى شاطئ بحيرة قارون وبحت باسمها حينئذٍ وقلت انهُ اسم على مسمّى ثم قلت ولكن قد لا يهمها امري وان كان الحال كذلك فلا مأرب لي في الحياة فتعالي يا امي وخذيني اليكِ . وجعلت تبكي وتنتحب . واكثرنا الكلوروفورم حينئذٍ فانقطعت عن الكلام وصبغ الحياء جبين الدكتور يوسف وكان ممسكاً نبضك فخفت ان تفلت يدك من يدهِ وربك الحميد انهُ لم يفهم كلامك غيري وغيرهُ لان الجراحَيْن الآخرين لا يفهمان كلمةً من العربيّة ومن المحتمل ان يكون الدكتور يوسف علم اني فهمتُ مَن تعني اما انا فلم اظهر لهُ اني فهمت ذلك

فقلت لهُ هل اخبرت احداً بقصتي

فقال كلاَّ ولا يجوز لي ذلك بوجه من الوجوه كما قلت آنفاً لاني احسب انهُ اعتراف سري لا يجوز افشاؤُهُ

فقلت احسنتَ . وهذه هي الشهامة وارجو ان يبقى الامر مكتوماً كل الكتمان لاني قد اكون بحت باكثر مما في نفسي

ولما قلت ذلك شعرت ان الدم صعد الى وجهي وكاد يحرقني

فنظر اليَّ وتبسم تبسماً ادركتُ مغزاهُ . فقلت لهُ اذاً انت الرجل الوحيد الذي اكتشف سري نعم والدكتور يوسف اخوها وهل تظن انهُ اخبر اختهُ

فقال لا اظن بل ارجح انهُ لم يخبرها لانهُ يعرف حقوق صناعتهِ حق المعرفة ومع ذلك فترددهم المستمر عليك واهتمامهم بامرك لا يفسَّر بسهولة اذا نفينا معرفتهم بما قلت . هل كانوا يعرفونك من قبل

فقلت كلاَّ لا يعرفني الاَّ يوسف وامين وقد عرَّفاني بابيهما واختهما منذ شهرين او ثلاثة قبلما اصابتني هذه المصيبة ولا احسب انهم اهتموا بامري الاَّ لاني كنت ضيفاً عندهم وكنت آتياً مع ابنهم لما وقع بنا القطار

فقال معرفة مباركة وابرهيم بك من اكبر السراة واوجه الوجوه والسيدة نزهة مشهورة بجمالها كما هي مشهورة بعلمها وادبها والاقباط يعطون البنت كما يعطون الصبي والثروة واسعة

قال ذلك متبسماً . ولما رأى اني لم اشاركهُ في التبسم قال ان الذين يدَّعون انهم لا يسألون عن مال الزوجة هم اشد الناس مطالبةً بهِ حتى اني اعرف كثيرين من الشبان كانوا يدَّعون هذه الدعوى ثم ابطلوا الخطبة وامتنعوا عن الزيجة حينما لم يشأ والدا البنت ان يعطياها كل ما يخصها من الميراث وهما في قيد الحياة

فقلت أوأنت تحسبني منهم

فقال كلاَّ لست منهم ولكن كثرة الزهد توقع الشك . ثم تعال ننظر الى هذه المسألة من وجهها الاجتماعي . يكون الرجل غنياً وتشب ابنتهُ في نعمة وافرة تأكل ما تشتهي وتلبس ما تريد وعندها الخدم والحشم ثم يخطبها شاب لا يستطيع ان ينفق عليها كما ينفق ابوها فهل يجوز ان تتحمل شظف العيش لان زوجها ليس غنياً مثل ابيها ولا هو وارث لميراث وافر مثل اخيها

فقلت كلاَّ ولكن هب ان ثروة ابيها محدودة ودخلهُ منها يكفي لنفقات بيتهِ فاذا تزوجت

وخرجت من البيت لا تقل النفقات بخروجها لان ما يكفي ستة انفس قلما يزيد عما يكفي خمسة. اما اذا كانت ثروة الوالد وافرة يزيد دخلها على نفقاتهِ فالواجب عليهِ ان يعطي بناتهِ قبل ابنائهِ كل ما يستطيع ان يعطيهنَّ اياهُ . ثم لا يخفى عليك يا دكتور ان الراحة العائلية لا تتوقف على المال الكثير. اليك قصةً كنت اقرأُها اليوم وهي ان رجلاً اميركياً جمع ثروة طائلة جدًّا بطرق مختلفة بعضها محلل وبعضها محرَّم وكان لهُ ابن وابنة وهما الوارثان لثروتهِ واتفق ان رأت ابنتهُ شابًّا انكليزيًّا جميل المنظر رضيَّ الاخلاق حسن التهذيب فاحبها واحبتهُ وتواعدا على الزيجة وسُرّ ابو الفتاة بذلك ولم يبالِ بان الشاب لا يملك شيئًا لانهُ هو كان واسع الثروة جدًّا كما تقدم وكان يحب ابنتهُ حبًّا مفرطاً ويرجو لها السعادة وقد اعجبهُ منظر الفتى وتوسم فيهِ سمات الخير وكان ابنهُ عليلاً لا يرجى لهُ العمر الطويل فرأى ان هذا الفتى سيكون الوارث لكل امواله ولم يأنف من ذلك

اما الفتى فقال الابنة ان اموال ابيكِ ليست مجموعة بطرق الحلال فلا اريد ان امس درهماً منها فان شئتِ ان تعيشي معي وتكتفي بما انفقهُ عليكِ مما اكتسبهُ بيدي (وكان مصورًا) وعلى قدر طاقتي فانا لكِ وانتِ لي والاَّ فلا بد من الفراق . وهمَّ على العودة الى وطنهِ فقالت لهُ انها تذهب معهُ اينما ذهب وتشاركهُ في السراء والضراء ولا تأخذ درهماً من اموال ابيها

فكتب كتابهُ عليها وعاد بها الى اوربا وكان معهُ نقود قليلة انفق منها الى ان وصل الى بلادهِ فاستأجر بيتاً صغيرًا ووضع فيهِ ما لا بدَّ منهُ من رخيص الاثاث. واتى الفتاة كتاب من ابيها يقول لها فيهِ انهُ اوصى البنك الذي يودعهُ امواله ان يعطيها كل ما تطلبهُ الى حد مليوني جنيه اما زوجها فقال كلا وهذا عهد الله بيني وبينك . فقالت وهو كذلك

ولا تسل عن المشقَّة التي عانتها ابنة تربَّت حيث الخدم والحشم والمركبات على انواعها حيث تنهض من فراشها في الصباح فتأتي وصيفاتها يغسلنها ويعقصن شعرها ويلبسنها ثيابها ثم تذهب الى غرفة المائدة فتجد عليها لذيذ الطعام وتخرج بعد ذلك للنزهة في مركبة من افخر المركبات وتعود فتقرأُ قليلاً ثم تجلس للغداء وتخرج للنزهة او للزيارة وتلبس ثانية للعشاء وتذهب بعد ذلك الى اماكن التسلية والتمثيل وتمرُّ الايام وكل شيءٍ طوع امرها وقد لا تتكلَّف ان تأمر بشيءٍ بل يأتيها كل شيءٍ من نفسهِ لان خدَم البيت يعرفون كل ما يطلَب منهم فيفعلونهُ من تلقاء انفسهم

هذه الفتاة التي تربت في مهد الرفاهة والنعيم قامت في الصباح فلم ترَ في غرفتها ماءً

تغسل بهِ وجهها ثم اناها الخادم يقول لها ما تريدين ان اطبخ اليوم وعاد وهو يقول لا يوجد فحم في المطبخ ولا صابون ولا ملح ولا دهن . لكنها قالت في نفسها ان تسعة وتسعين في المئة من بنات جنسي عائشات في حالة ادنى من حالتي فلا بدَّ لي من ان ادرّب نفسي على هذه المعيشة حتى آلفها واتغلَّب على ما اجدهُ فيها الآن من المشاق

ولبست في المساء افخر ثيابها واقامت تنتظر زوجها فخضر والادهان على يديهِ وثيابهِ وجلس معها للعشاء كأنهُ لم يرَها ولا هو محتفل بها فاسقط في يدها ولكنها صبرت صبر الكرام

ومرَّت الايام والشهور وهي تحاول ان تعوّد نفسها ما لم تعتدهُ قط فيتعذَّر عليها الامر وباعت حلاها التي ورثتها من امها وانفقت على بيتها ثم ولدت طفلاً وذاقت مرارة المخاض والنفاس وكانت الى هذا الوقت راضيةً بحالتها ولو كرهًا فلما صار طفلها بين يديها وهي عاجزة عن ان تلبسهُ وتعتني بهِ كما تريد كبر عليها الامر وفرغ صبرها وكان اخوها قد توفي واصبحت هي الوارثة الوحيدة فحملت طفلها وعادت الى بيت ابيها وكانت قد ارسلت اليهِ تلغرافًا تخبرهُ بولادتها وعزمها على الرجوع اليهِ فهيأ قصرهُ لاستقبالها واعدَّ لحفيدهِ جانبًا كبيرًا منهُ وضع فيهِ كل ما يمكن ان يشترى بالمال من وسائل الرفاهة والتسلية فكبر الولد وترعرع وهو كأنهُ في فردوس اما هي فلم تطب لها الاقامة في بيت ابيها بعيدةً عن زوجها وكانت امها قد تركت لها ميراثًا طفيفًا يبلغ ريعهُ جنيهين في الاسبوع فاخذتهُ وعادت بهِ وبطفلها الى انكلترا ولم تخبر زوجها بذلك واقامت في بيت من بيوت الضيافة (بنسيون) ولم تطل الايام حتى جاءها نعيُ ابيها وجاءها من المحامي ان اباها ترك لها كل ثروتهِ وهي تبلغ عشرة ملايين من الجنيهات فكتبت اليهِ ان يوزعها كلها على المستشفيات والمدارس والاماكن الخيرية وارسلت اليهِ قائمة بذلك حتى لا يبقى لها شيء من تلك الثروة

وكان زوجها قد دأب على اتقان فن التصوير وصوَّر صورة كان لها شأن كبير في جمعية التصوير الملكية فباعها بالف جنيه وطُلب منهُ تصوير غيرها بمبالغ طائلة وبينما هو يفكر في زوجتهِ والبحث عنها لعلَّهُ يستطيع ان يردَّ اليها شيئًا مما خسرتهُ بخروجها من بيت ابيها سمع باعة الجرائد ينادون قائلين مات فلان الغني الاميركي ووهبت ابنتهُ كل امواله للاماكن الخيريَّة . فتناول جريدة وقرأ فيها الخبر ثم بحث عن زوجتهِ فوجدها وعاشا بعد ذلك بالرفاء والهناء

هذه القصة شاذَّة وقد تكون موضوعة لا اصل لها ولكنها تمثل حقيقة راهنة وهي ان

الراحة والسعادة لا تتوقفان على كثرة المال . وكلُّ ما يحتاج اليهِ الزوجان لاجل الراحة والرفاهة انما هو الكفاف مع صحة العقل والجسد

ولما اتممت قصتي ضحك الدكتور عبد الله وقال اراك صرت من الوعّاظ . والقصة حسنة المغزى ولكن هذا المصور احمق فقد اتعب نفسهُ واتعب زوجتهُ على غير جدوى لانهُ سواء تعلمت زوجتهُ طبخ الطعام او لم تتعلمهُ فنوع الانسان لا يزيد نفعاً ولا ينقص نفعهُ لان طبخ الطعام ليس مطلوباً من كل احد . والاموال التي لم يشأ ان ينتفع بها هو وزوجتهُ وابنهُ اعطيت لغيرهم لينفقوها وهم ليسوا احق منهم بها وستزاد بها اجور اطباء المستشفيات واساتذة المدارس ويبقى صاحبك المصور يشتغل من صباحهِ الى مسائهِ ليصنع صورة قد ترضي مَن صنعت لهُ فيعطيهِ اجرتها وقد لا ترضيهِ فيرفضها ولا يعطيهِ شيئاً وان كنت لا تطلب مالاً مع ابنة ابرهيم بك ولا تحتاج الى مال ابيها فدعها لمن يطلب المال ويحتاج اليهِ

فقلت ان كانت لك فهي مباركة عليك

فقال "بارول" هات يدك وهزَّ يدي وخرج وهو يقول "بونجور اوره ڤوار"

خرج الدكتور عبد الله وتركني وحدي اراجع افكاري وانظر في حديثهِ ومغازيهِ فقلت في نفسي انهُ يمزح في كلامهِ الاخير فلا يعبأ بهِ ولكن ان كنت قد بحت حقيقةً بحبي لهذه الفتاة وانا مبنَّج وكان اخوها قد سمعني واخبر اباهُ واخاهُ فعطفا عليَّ لهذا السبب فيكون عطفهما ليس مجرداً عن كل غاية . وكيف يليق بفتاة ان تتردد على رجل مثلي وهي تعلم انهُ جاهر بحبها ولم يخطبها ولا كلم اهلها في امرها . فنفرت من هذا الفكر واشمأزت منهُ وقلت بل هي ارفع من ذلك ويستحيل ان يكون اخوها قد اطلعها على ما سمعهُ مني وما الدكتور عبد الله الاَّ زارع خصومات ولعلَّ مرادهُ تنفيري من هذه العائلة وقد بلغ من حماقتي اني صدقت كلامهُ . الآن فهمت سبب تودده اليها والى اخيها وكثرة ترددهِ عليَّ هذا هو المكر بعينهِ . والظاهر انهُ هو لا يعدهُ مكراً بل مهارة

تشتَّتت افكاري وكاد يعتريني دوار . فاخذت اراجع الحوادث الماضية حادثةً حادثةً من حين لقيت هذه الفتاة على شاطئ بحيرة قارون الى الآن وافسّرها بهذين الفرضين الاول اني بحتُ بحبي لها وانا تحت فعل البنج والثاني ان الدكتور عبدالله يريد صرف افكاري عنها والاقتران بها فرأيت ان كل ما كان غريباً في تلك الحوادث تزول غرابتهُ مع هذين الفرضين فكبر الامر عليَّ وضاق نَفَسي في صدري وكاد يغمى عليَّ ولكنني بقيت مرجحاً ان الفتاة لا تعلم شيئاً مما بحت بهِ وانما هي مدفوعة لزيارتي بعامل الصداقة ولو سمعت

انني بحت بحبها لمنعها الحياء من زيارتي ولاسيما امام الدكتور عبدالله . ولو كانت تحبني كما احبها لمنعها حبها لي عن زيارتي ايضاً لانها تشعر ان حبها ينمُّ عليها وتحسب ان كل الناس يعلمون بهِ كما تعلمهُ هي فلا بدَّ من ان قلبها خالٍ من كل فكر من هذا القبيل لم يبلغها ما قلتهُ ولا هي ناظرة اليَّ بغير عين الصداقة المحضة . فطوَّبتها على خلوِّ قلبها وزاد شغفي بها لبساطتها وسلامة نيتها . اما الوعد الذي وعدت الدكتور عبدالله بهِ فكلام بكلام واذا كان هذا الرجل مكّاراً غير خالص النيَّة فلا بدَّ من ان تكتشف السيدة نزهة ذلك لان النساء اشد فراسة من الرجال فيستحيل ان ترضى بهِ وهي على ما ظهر منها من حريَّة الفكر وسمو الادراك والترفُّع عن الدنايا . ولم ارَ قط انها كانت تنظر اليهِ بعين المودَّة بل كثيراً ما كانت تقصّر الكلام معهُ باجوبة سديدة مفحمة فاطمأن بالي وجاء في الخادم حينئذٍ يدعوني الى الغداء

الفصل العاشر

مجلس القضاء

ما هذا الخبر يا امين هل اطلقوا سراح ابي سعدان وكيف جرى ذلك والرجل قتل مئة قتيل وغلَّب البلاد

قال ابرهيم بك ذلك وهو جالس في شرفة بيتهِ في العاصمة واولادهُ حولهُ وانا معهم وكنت لا ازال اتوكأُ على عصاي لكي لا اتعب رجلي وقد دعوني يومئذٍ للغداء معهم وقالوا انهم صنعوا لي ملوخيَّة على طريقتهم

فقال لهُ امين حضرت المرافعة وهي من المضحكات المبكيات . اتوا بابي سعدان فخرج من السجن وقد اطلق لحيتهُ وطال شعرهُ واحدودب ظهرهُ واصفر وجههُ وغارت عيناهُ حتى تظنهُ حبيساً لزم صومعتهُ او شيخاً فانياً قارب الوفاة فوقف في باب المحكمة والتفت يمنةً ويسرةً وحيّى الحضور بالسلام عليكم وهو يتوكأُ على عصاً قصيرة ويكاد رأسهُ يصل الى الارض ومشى مشياً بطيئاً يرسف بقيودهِ الى ان بلغ قفص المجرمين فوقع فيهِ مدعياً انهُ لا يستطيع الوقوف لوهن قدميهِ فسمحوا لهُ بالجلوس وسألهُ القاضي عن اسمهِ وبلدهِ وعملهِ فتصامَّ وظهر عليهِ انهُ لم يسمع شيئاً فجعل العسكري الواقف الى جانبهِ يصرخ في اذنهِ مردداً سؤال القضاة وهو يلتفت اليهِ كمن لم يسمع شيئاً او لم يفهم معنى ما سمعهُ الى ان جَّ العسكري فاجاب عن اسمهِ وبلدهِ وسنهِ وعملهِ وقال ان عمرهُ نحو ثمانين سنة وانهُ كان فتيَّ في زمن

ابرهيم باشا . وشرح عضو النيابة الواقعة احسن شرح . ثم سئل المتهم عما يعلمهُ من امر القتيل مرسي فانكر انهُ يعرف شيئًا من امرهِ فسئل عن الرش (الخردق) الذي وجد في ظهرهِ فقال لقد قلت لكم مئة مرة ان ولدًا اصابني خطأً وهو يرمي الحمام فقد كنت جالسًا في الغيط فلم اشعر الاَّ والرش اصابني وطرحني على الارض فنهضت والتفت فرأيت الحمام طائرًا وولدًا بيدهِ بندقية وهو يعدو راكضًا فعدوت وراءهُ ولم ادركهُ لانهُ كان قد ابعد عني كثيرًا

فسألوهُ الى اين ذهبت بعد ذلك

فاجاب بعد ان كرَّر العسكري السؤال في اذنهِ ذهبت الى بيتي

فقالوا لهُ ماذا قالت لك امرأتك

فقال لم تقل شيئًا

فقالوا وماذا قلت لها انت

فقال لم اقل شيئًا

فقالوا الم ترِ نفسك لطبيب

فقال كلاَّ . وكان يجيب بالنفي عن كل مسائلهم . واخيرًا شرحوا لهُ التهمة بالايجاز فانكر كل الانكار وبكى واشتكى وقال يا ناس خافوا ربنا رجل عاجز مثلي رجل ينتظر الموت ساعة بعد ساعة ليلاقي ربه . رجل في هذا السن لا يستطيع المشي على رجليه يتهجم على مساكن الناس يقتل وينهب هل تصدقون ذلك يا قضاة هل تصدقون اني انا استطيع ان احمل البندقية وهل اطلق النار بهذه العصا ما هذا الجنون من اتهمني هذه التهمة يا ربي ولكن اولاد الحلال كثار . وجدوا القتيل وان كان معاون النقطة لا يكتشف القاتل وقع تحت لوم المأمور وان كان المأمور لا يكتشف القاتل وقع تحت لوم المدير وان كان المدير لا يكتشف القاتل وقع تحت لوم الداخلية اهو وجدوا رجل قالوا انهُ قاتل والسلام

ووقف المحامي عنهُ واستلفت الانظار الى شيخوخته وضعف جسمهِ وقال ان رجلاً مثلهُ لا يعقل انهُ يقدم على السطو وجرح شهادة الشهود وخطأ النيابة في استنتاجها وقال ان الوقائع التي ذكرتها ونسبتها الى ابي سعدان يحتمل ان تكون قد وقعت من رجل آخر بهذا الاسم ثم طلب لهُ البراءة لانهُ شيخ مريض فانٍ لا يستطيع ان يأتي العمل الذي نسب اليهِ ولم يقم دليل واحد على نسبتهِ اليهِ

وكنت اسمع القضاة يتكلمون همسًا ويقولون كيف يعقل ان رجلاً مثل هذا يقدم على السطو والقتل واخيرًا خلوا للمداولة ولم تكن الاَّ دقيقة حتى عادوا ونطقوا بالبراءة

اما ابو سعدان فبقي شاخصاً اليهم لا يتكلم كأنهُ لم يسمع شيئاً مما قالوهُ ثم دنا عسكري منهُ وصرخ في اذنهِ قائلاً ادعُ لافندينا وللقضاة. فظهر كانهُ لم يسمع شيئاً فصرخ العسكري في اذنهِ ثانيةً وثالثةً واخيراً قال المتهم لا يمكن ان يحكم عليَّ هؤلاء القضاة العادلون فانهم عادلون عادلون الله يكون معهم الله يقويهم يا رب. ونزع عمامتهُ عن رأسهِ وبسط يديهِ واخذ يدعو لهم ثم قال للعسكري اي ساعة يصدر الحكم فقال لهُ العسكري قد صدر الحكم يا ابويَ ببراءتك فالتفت اليهِ كأنهُ لم يسمع شيئاً وبعد صياح واشارات ظهر انهُ فهم فبسط يديهِ ثانية وجعل يدعو للقضاة ونهض فاخرجوهُ من المحكمة ونزعوا القيود من رجليهِ. ورأيتهُ بعد ذلك في المحطة عائداً الى الفيوم مع اقاربهِ حتى اذا دخل المركبة انتصبت قامتهُ وابرقت اسرتهُ وجعل يتهكم على المحاكم والقضاة

فقطب ابرهيم بك حاجبيهِ وقال اذاً ذهب دم مرسي هدراً ولم يعد في الامكان ان نأمن على عزبنا في جهات سنهور وسنورس ولا بدَّ لنا من استخدام بعض الاشقياء لحفظ الامن

واتى المستر مكنزي حينئذٍ فاخبرهُ امين افندي بخلاصة المحاكمة وتبرئة القاتل وعزم ابيهِ على استخدام الاشقياء لحفظ الامن في عزب اطيانهِ ثم قال هذه نتيجة قضاء ومحاكم لا سيطرة عليها من الامة فلو كان عندنا مجلس نوَّاب لسننا القوانين التي تناسب بلادنا لا القوانين التي تناسب فرنسا وانكلترا. اسأل كل اهالي البلاد التي منها هذا الشقي يقولوا لك كلهم انهُ من اكبر الاشقياء وانهُ قتل عشرات من الناس ومع ذلك لا تستطيع المحاكم ان تحكم عليهِ الاَّ بموجب القانون الفرنسوي ولا تستطيع الحكومة ان تبعدهُ عن بلادهِ لئلاَّ يقوم رجل من الاحرار في بلادكم ويسأل وزير الخارجية عن سبب ابعادهِ فيلوم وزير الخارجية نائب حكومتهِ في مصر على هذا العمل الاستبدادي فنبقى على ما نحن فيهِ من ضياع الحقوق ونقوُّض دعائم الامن وهذه حال لا تحتمل

فقال المستر مكنزي هل حاولتم ان تبدلوا قوانينكم بغيرها ومنعكم الانكليز من ذلك

فاجابهُ امين ما الفائدة من المحاولة ومجلس الشورى للاستشارة فقط وللحكومة ان تعمل برأيهِ او لا تعمل والجمعيَّة العمومية تطلب مطالب كثيرة فلا تجاب اليها الاَّ في ما ندر والموظفون منكم لا يعملون الاَّ برأيهم وهم يجهلون لغة البلاد ويحتقرون اراء رجالها ولم ارَ في حياتي استبداداً مثل استبدادهم وهذا القول لا يصدق عليهم كلهم لان فيهم الصالح والطالح ولكن الضرر لا يزال من هذه الجهة اذا وجد النفع في جهة أخرى

الفصل الحادي عشر

عود الى الثورة

دعيت الى العشاء في بيت ابرهيم بك بالقاهرة وقيل لي ان المستر مكنزي مدعوٌّ ايضاً واننا اذا ذهبنا باكرًا فابرهيم بك يقص علينا بقية قصة الحزب الوطني. فلبست ثياب المساء ومررت على نزل شبرد واخذت المستر مكنزي معي لانهُ كان في انتظاري هناك وسرنا الى دار ابرهيم بك فوجدناهُ جالساً وحدهُ في مكتبتهِ فاستقبلنا فيها ثم جاء اولادهُ ومعهم السيدة نزهه ومس برون

والمكتبة غرفة رحبة مفتوحة من الشمال والشرق وفيها كراسي ومقاعد كبيرة من الجلد البني وخزائن الكتب من الجوز القاتم اللون وفي ارضها بساط فارسي يغطيها كلها منقوش نقشاً جميلاً بالوان حمراء وصفراء. ولما استقرَّ بنا المجلس أُتينا بالقهوة والسكاير وشرع ابرهيم بك في تتمة حديثهِ الذي بدأهُ ونحن في الفيوم فقال وقفنا عند الكلام على ابي نظارة وجريدتهِ الاولى التي انتقد بها اعمال رجال الحكومة على اسلوب هزلي وبلغة عاميَّة ووزعها سرًّا فتداولتها الايدي وطربت لها النفوس وكان انتقادها جارحاً لانهُ صحيح ومطرباً لما فيهِ من النكت ولانهُ بلغة عامية يفهمها ابناء البلد ولا يأنف منها كبار المتعلمين حتى علماء الازهر فاني رأيت بعض رجال الحكومة وكبار العلماء يقرأونها بنغمة الطرب ويؤمنون على كل كلمة فيها ولا سيما اذا كان الكلام مبهماً يفسرهُ كل احد حسبما يشاء اوحسبما هو راسخ في ذهنهِ. ولكن ليس المراد ان اطلعكم على رأيي بل على رأي ذلك الكاتب الذي كتب منذ خمس وعشرين سنة المقالة التي عنوانها "اصل الحزب الوطني في مصر" كما قلت لكم قبلاً فقد قال ان تلك الجريدة شاعت في القطر المصري وتداولتها الايدي في السنوات الخمس الاخيرة من حكم اسماعيل باشا حتى لم يبق حمَّار في مصر والارياف الاَّ سمع من يقرأها لهُ اذا كان هو يجهل القراءة وقد كنت انا من الموزعين لها في الارياف ومن اشد الناس رغبة في نشرها وهي اول جريدة من جرائد الحزب الوطني وبواسطتها نشأت مصر الفتاة. وانشأ صاحبها تياترو صغيرًا وجعل يمثل فيهِ ويبين اسراف العائلة الخديوية فتهافت الناس عليهِ من كل فج واقتدى بهِ بعض تلامذة الازهر. ثم انشأ جريدتهُ الثانية المسماة بابي نظارة التي جمع فيها ما كان ينشرهُ في نشرتهِ الاولى وما كان يقولهُ في التياترو ورسم فيها صورًا هزلية تهكم بها على الخديوي ونظارهِ فراجت أي رواج وكانت سبباً لشهرة صاحبها ونفيهِ فان رياض

باشا امر بالقبض عليهِ . ولو لم يكن محتمياً بالحماية الايطالية لذهب في طريق من تقدمهُ من محبي وطنهم لكن الحماية لم تقهِ من النفي فنفي ومضى الى باريس واعاد نشر جريدتهِ فيها

وهنا اعترض الدكتور يوسف قائلاً ماذا كان غرض ذلك الرجل وما هو نفعهُ الذاتي من تلك الجريدة هل كان يكتسب منها ماليًّا

فقال ابوهُ هـذه امور لا يعلمها الاَّ الله والراسخون في العلم والتفت اليَّ كأنهُ يطلب مصادقتي على ذلك والتفتت اليَّ السيدة نزهة ايضاً فقلت اذا كنتم تطلبون رأيي فاني اعتقد ان ذلك الرجل واسمهُ يعقوب صنوع على ما اظن كان مأجوراً لهذا العمل وقد كنت ولداً صغير السن حينئذٍ فلا اتذكر اني رأيت تلك الجريدة

فقال امين وكيف ذلك ومَن استأجرهُ وما هو غرضهُ

فقلت المال اصل كل الشرور كانت الحكومة مديونة في عهد اسمعيل باشا بنحو مئة مليون جنيه ورأى المداينون انهُ لا ضمان لاموالهم الاَّ اذا وضعت مالية مصر تحت مراقبة دولة اوربية واكثر المداينين من الفرنسويين والانكليز وان شئتم فقولوا من رعايا الفرنسويين والانكليز لانهم اسرائيليون سوريون لا من الفرنسويين اصلاً ولا من الانكليز فسعوا لتكون المالية المصرية او الحكومة المصرية تحت مراقبة فرنسا وانكلترا ولما رأوا انهُ يستحيل اتفاق الدولتين في كل شيءٍ ولا بدَّ من انفراد واحدة منهما فضَّلوا ان تنفرد انكلترا بهذه المراقبة لان الحكومة الفرنسوية متقلبة الشؤون ورأوا ان انكلترا لا تقدم على عمل الاَّ مضطرة فاشتروا لها اسهم ترعة السويس حتى تزيد مصالحها في مصر ثم عملوا على تحريك الثورة حتى يضطروها الى احتلال البلاد دفاعاً عن مصالحها واستأجروا ذلك الرجل وامثالهُ لاضرام نار الثورة

وكنت اتكلم والعيون شاخصة اليَّ فقالت السيدة نزهة هذا هو التعليل المعقول وقال ابوها الم تسمعوا ما قرأتهُ لكم وهو ان ذلك الكاتب نفسهُ كان يوزع نشرة ابي نظارة فهل يعقل ان لهُ غرضاً غير اثارة الخواطر . وتبسم المستر مكنزي وقال لي لقد اتهمتنا من جهة وبرَّأتنا من اخرى وانا أؤكد لك ان كل ما فعلناهُ في توسيع املاكنا انما فعلناهُ مدفوعين الى ذلك بالحاجة تجارنا وللدفاع عن مصالحهم ثم التفت الى ابرهيم بك وقال لهُ اذا كان صاحبك من جملة المحركين في الثورة العرابية . فاجابهُ نعم كان كذلك وكان لهُ شركاء في ذلك العمل وهاك تتمة حديثهِ في مقالتهِ قال : —

وقام في ذلك الحين رجال كثيرون من طالبي تغيير الاحوال مثل سلطان باشا

والاباظية والشريعي وفكري وواصف و بطريرك الاقباط وبطريرك الارثوذكس واخيرًا قام عرابي واشتهر بغيرتهِ الوطنية ومنهُ ومن رفاقهِ تألف الحزب الوطني وقد نشأ هذا الحزب اولاً على هذه الصورة . في سنة ١٨٦٦ طلب الباب العالي من اسمعيل باشا ان يرسل جنودهُ لقمع ثورة اليونان في كريت فاراد اسمعيل باشا ان يحمّل الحكومة العثمانية نفقات الجنود المصرية فانشأ مجلساً من اعيان البلاد لكي يوافقوهُ على مرامهِ ويطرح نفقات حملة كريت من ويركو مصر ويجعل المسؤلية على اعيان البلاد فجعل هؤلاء الاعيان يفدون الى مصر ويقرون ما يطلبهُ منهم الى ان كثرت الديون المصرية ورأى انهم صاروا يتبرّمون من المصادقة على كل ما يطلبهُ منهم فصرفهم ولكن جمعهُ لهم واعتمادهُ عليهم جعلاهم يحسبون ان لهم كلمة تسمع او انهم صاروا بحيث لا يستطيع ان يغفل امرهم . ولما لم يلغِ الدكرتو الذي جمعهم بموجبهِ صاروا يحسبون انفسهم قوةً في البلاد وهم اساس الحزب الوطني الذي تولد بعدئذٍ

ولما رأى الوطنيون افراط اسمعيل في الاسراف شعروا ان لا دواء لتلك الحال الاَّ اذا راقبت الامة على اموالها . ثم نشأت المراقبة الاوربيَّة وعندي انهُ لو لم تتداخل اوربا في سياسة مصر لاضطر الوطنيون اسماعيل باشا الى القبول بمراقبة الامة على اموال الحكومة وسواءٌ كنت مصيباً او غير مصيب فلا شبهة انهُ صار في البلاد قوة حينئذ وان اسماعيل باشا شعر بوجودها ولو لم يشعر بهِ نظارهُ

وفي سنة ١٨٧٨ كانت حيل اسماعيل المالية قد فرغت وجعل يفكر في اشهار الافلاس ورأى ان الناظرين الاوربيين اللذين نصبهما في حكومتهِ ليسهل عليهِ اقتراض الاموال قد صارا حملاً ثقيلاً عليهِ فعزم على التخلص منهما ولم يرَ سبيلاً الى ذلك الاَّ بالالتجاء الى صنيعتهِ القديمة اي مجلس الاعيان والحزب الوطني فاخذ يذاكرهم في الامر سرًّا عن يد بعض اعوانهِ ووعدهم وعودًا كثيرة خلاصتها انهُ يحسبهم حزبًا وطنيًّا ويكون زعيمًا لهم ويقوم معهم في وجه كل المداخلات الاجنبية وفي وجه كل الموظفين الاجانب . ثم يتفق هو والاهالي على تصفية الديون وتوحيدها كلها وجعل فائدتها ٧ في المئة فقط وحالما يتم ذلك يجمع مجلس الاعيان و يمنحهم حكومة دستورية

ولم يكن اسمعيل باشا قاصدًا ان يفي بما وعد بهِ من حيث جعلهُ الحكومة دستورية ولكن كان شريف باشا قد انشأ قانونًا اساسيًا فنظروا اليهِ كرجل حر يحسن ان يكون زعيمًا للوطن . وشاع حينئذٍ ان المراد بتصفية الديون الوصول الى ابطالها كلها والتخلص منها دفعةً واحدة فان اسمعيل باشا كان يعلم ان البلاد تئن من ثقلها وتود التملص منها فاشاع ما اشاع

ثم جعل يخابر قواد الجيش ليعلم افكارهم وافكار الضباط الذين تحتهم لكي يخيف الناظرين الاوربيين ويلبس الاعتداء عليهما لباس تمرد عسكري فهجموا على ولسن في الطريق وحصروا بلنير في بيتهِ وافلح اسمعيل باشا في غرضهِ ولكنهُ كان يلعب بسيف ذي حدين فنال غرضهُ من اوربا وقتياً ولكنهُ قوّى الحزب الوطني حتى صار اقوى منهُ

وسنة ١٨٧٩ شعر المدابنون وغيرهم ان قصد اسمعيل باشا اظهار الافلاس فاضطروا دولهم الى المداخلة فخُلع اسمعيل وخلفهُ ابنهُ توفيق وهنا وصف الكاتب توفيق باشا وصفاً تعفوني من تلاوتهِ عليكم الى ان قال اما توفيق باشا فلم يخلف اباهُ ليتسلط على البلاد بل وضعت السلطة في يد رياض باشا الذي عين بقرار من دول اوربا فاستلم زمام الاحكام وجرى على خطة الارهاب التي كان اسمعيل جارياً عليها لكن الحزب الوطني لم يرهبهُ بل بقيت جرائدهُ تتكلم بجرأة ونشر هذا الحزب منشورهُ الاول في ٩ نوفمبر سنة ١٨٧٩ واللجنة التي كتبت ذلك المنشور كانت مؤلفة من سلطان باشا وسامي باشا وعلي بك يمني واسمعيل باشا يسري وعثمان باشا لطفي وشريف باشا وانا نفسي انشأت المنشور باللغة الفرنسوية وهو يختلف قليلاً عن المنشور العربي وهذه خلاصة بعض موادهِ

ان اسمعيل باشا استعان بالحزب الوطني في وقت ضيقهِ وهو عارف ومعترف بوجود هذا الحزب ولكنهُ استعان بهِ بعد فوات الفرصة فلم يلبِّ نداءهُ احد والآن قام الحزب الوطني لكي ينجي البلاد من الدمار وهو يطلب ان تكون لهُ حقوق كل امة تستحق ان تسمَّى امة

والحزب الوطني مستاءٌ من وجود المداخلة الاجنبيَّة التي افضت الى خلع اسمعيل باشا ولو استحقَّ ذلك ولا يسلم ان حكومة انشأتها اوربا تعبّر عن مطالب البلاد ورغائبها لان البلاد لم تُستشر في ذلك فهي ترفض هذه الحكومة

ان مصر قادرة على ايفاء ديونها ولكنها توفيها على الاسلوب الذي تختارهُ ولذلك تطلب الاستقلال بحكومتها

والحزب الوطني يسلّم بنفع المساعدة الاوربيَّة المقيدة ولكنهُ يرفض كل مداخلة اجنبيَّة وهذا الحزب يقبل في دائرتهِ كل سكان القطر المصري الخاضعين لقوانينهِ مهما كان اصلهم وجنسهم وهو عازم على نيل حقوقهِ بالوسائل السلمية ولا يلجأ الى القوة الاَّ اذا عجزت الوسائل السلميَّة عن نيل المراد . ولذلك فهو يعتمد على عدل الدول الاوربية معتقداً انها تريد الخير لمصر ويعتمد بنوع خاص على شهامة البرنس بسمارك[1] المدافع عن الحقوق الوطنيَّة

(١) زيدت هذه العبارة بطلب اسمعيل باشا يسري

ولا يستطيع زعماء هذا الحزب الآن ان يوقعوا هذا المنشور لان النفي والقتل لا يزالان نصيب من يجاهر بحب وطنهِ ولكن اذا ضمنت سلامتهم فكلهم يوقعونهُ

وتتعهد مصر بايفاء ديون حكومتها ولكنها لا تسلم برهن دخلها لبعض المداينين دون سواهم كما هو مفاد اتفاق غوشن وجوبر واتفاق روشيلد

ولذلك فالحزب الوطني يطلب المطالب التالية من حيث الامور المالية

(١) ارجاع اطيان الدومين الى الحكومة

(٢) الغاء كل الامتيازات التي اعطيت لبعض المداينين

(٣) توحيد الديون كلها وجعل فائدتها ٤ في المئة

(٤) انشاء مراقبة دولية مشتركة تكون الى وقت محدود لاجل مراقبة ايفاء الدين لاغير

ونشرنا ستة آلاف نسخة من هذا المنشور ولجأ الذين وضعوه الى حلوان وكانت المراقبة شديدة عليهم

وعاد المستر رفرس ولسن الى القاهرة في ربيع سنة ١٨٨٠ وقرّر قانون التصفية هو ورياض باشا . وقد اطنب الكتّاب الاوربيون في مدح ذلك القانون لكنهُ كان في الحقيقة ضغثاً على ابّالة وبمثابة القشة الاخيرة التي تكسر ظهر الجمل كما يقولون فحوّل سخط الحزب الوطني عن الاتراك الى الاوربيين . ومما زاد الطين بلة الغاء قانون المقابلة لانهُ نقض عهد الحكومة مع الفلاحين وخسّرهم عشرين مليوناً من الجنيهات وكانوا قد استدانوا اكثرها من المرابين بربا فاحش فشعر الفلاحون كلهم بثقل هذه المظلمة ولما اعترض عليها بعضهم نفي الى البحر الابيض مع ان المستر ولسن انتدب كل من لهُ اعتراض ليبديهُ وكان الرجل الذي نفي صديقاً حميماً لعرابي فاغتاظ عرابي من هذا الامر ووقع في نفسهِ وقعاً اليماً واستنهض همة اخوانهِ الضباط ليقاوموا هذا الظلم والاستبداد بالقوة والاّ فلا امان على حياة احد من سكان القطر

وكان الخديوي يغار من رياض باشا ويكره المراقبة الاوربية فمال الى الجنود وكان يود علي فهمي ويسر بمقابلة عرابي وكان عرابي قوي الحجة حسن المحاضرة فتشاور الرجلان مع الخديوي وكتبا احتجاجاً رفعاهُ الى رياض باشا طلبا فيهِ اصلاح الجيش واستخدام الضباط من المصريين لا من الشراكسة وعزل عثمان رفقي فلم يجبهم رياض باشا الى ذلك بل دعاهما الى المجلس ودعا معهما عبد العال واوصى هؤلاء الثلاثة الجنود الذين تحت امرهم ان يبادروا الى انقاذهم اذا أُلقي القبض عليهم ففعلوا ونجا الثلاثة ونالوا عفو الخديوي ومن ثمّ انتشر صيت عرابي في البلاد كلها ونظر اليهِ الناس كرجل قادر على تخليص الاهالي من ظلم الحكام وجعلت

العرائض تنهال عليهِ من كل فج وحسبوا انهُ زعيم الامة كلها كما انهُ زعيم الجنود

وهذا التمرد العسكري الذي حدث في فبراير سنة ١٨٨١ هو اول فصل من فصول الثورة . والفصل الثاني اهلي نما في الربيع والصيف التاليين وبلغ حدهُ في سبتمبر واشترك فيهِ الجنود والملكيون وكان غرضهُ قلب الوزارة الرياضية كلها واساسهُ سلطان باشا واباظه باشا والاول من اكبر اصحاب الاملاك في الوجه البحري والثاني من اكبر اصحاب الاملاك في الوجه القبلي فان هذين الرجلين نشرا منشورات سرية على مشايخ البلاد قالا فيها انهُ قد حان الوقت لتصير الحكومة دستورية . وكان توفيق باشا قد وعد الاهالي بمنحهم الحكومة الدستورية حينما تولى واكَّد وعدهُ سرًّا بيمين حلفها على القرآن لكن رياض باشا منعهُ من ذلك فطلبا منهم ان يرفعوا اليهِ عريضة يسألونهُ فيها ان يفي بوعدهِ باعطاء البلاد حكومة نيابيَّة ووزارة مسؤولة وجمع مجلس الاعيان حالاً لوضع القانون الاساسي وتعيين شريف باشا بدل رياض باشا لانهُ (اي شريف باشا) رئيس الحزب الوطني وكان قد تعهد انهُ يعمل حسب رغبة حزبهِ حالما يتولى الوزارة . وتقرر ان تسير ثلاث اورط من الجنود الى سراي عابدين في ٩ سبتمبر وتطلب من الخديوي المصادقة على عزل الوزارة وأُعلم ايضاً كيف يتصرف في عزل الوزارة . اي ان الخديوي والجنود والشعب كانوا كلهم متفقين على هذه الخطة . وفي اليوم التالي عرفت الامة المصرية كلها انها ابطلت حكم الاستبداد ودخلت في عصر جديد ولم تكن تعلم ما خبيءٌ لها في زوايا القدر

لما وصل ابرهيم بك الى هذا الحد قال هذه خلاصة ما كتبهُ المسيو نينه في مجلة القرن التاسع عشر في اواخر سنة ١٨٨٢ وصدر في جزء شهر يناير سنة ١٨٨٣ وهو صحيح اجمالاً ولو خالف الحقيقة في بعض التفاصيل

فقلت لهُ يظهر لنا من ذلك ان الحزب الوطني قديم في مصر أُنشئ فيها منذ خمس وعشرين سنة ولكنهُ قاد البلاد حينئذٍ الى الثورة ولا يبعد ان يقودها الى الثورة الآن ومن يعلم ما خبيءٌ لنا في زوايا الدهر

فقال نعم هذا هو رأيي انا ايضاً

فقال ولدهُ امين هل غاب عنكم ان الاحوال تغيرت جدًّا عمَّا كانت عليهِ في ذلك الحين

فقال ابوهُ نعم تغيَّرت ولكن تغيرها لا يقوي الحزب الوطني بل يضعفهُ ففي المرة الاولى كان الجيش المصري كلهُ في يد الحزب الوطني اما الآن فاكثر الجيش الوطني في السودان وليس عندهُ ذخيرة حتى يخشى جانبهُ وفوق ذلك فجيش الاحتلال في البلاد وهو يؤيد كلمة

انكلترا ولذلك يستحيل علينا ان ننال حكومة نيابية الاَّ برضى انكلترا

وحينئذٍ فتح باب غرفة المائدة ونهضت السيدة نزهة وقالت هيَّا بنا فسار ابوها امامنا وسرنا وراءهُ وجلسنا حول المائدة وطلبت السيدة نزهة منا ان نترك السياسة في مكتب ابيها ونتفكه بطيب الحديث

الفصل الثاني عشر

الدسيسة الكبرى

زارني المستر مكنزي هذا الصباح وكنت في غرفتي اطالع في كتاب ادبي فقابلتهُ بالترحاب وقدمت لهُ كرسيًّا كبيرًا وصندوق السكاير فجلس وتناول سيكارة ونظر الى ما هو مكتوب عليها ثم اشعلها وسألتهُ هل يشرب شيئًا فاجاب بالايجاب فناديت الخادم لياتيني بالهوسكي والصودا وانا اقتنيهما لاصدقائي الانكليز ولو كنت لا اشربهما لاني عرفت بالاختبار ان اكثر الانكليز لا يطيب لهم عيش ما لم تكن زجاجنا الهويسكي والصودا امامهم فملأ كاسًا وشرب شيئًا منهُ وقال الا تزال على عادتك فقلت اني كذلك لا تعصبًا ولكن يصعب على من كان في سني ان يعتاد شيئًا لم يعتدهُ في صباه

وتكلمنا في مواضيع شتى وكنت ارى في كلامهِ انهُ يقصد شيئًا غير ما يكلمني بهِ واخيرًا ادنى كرسيهُ من كرسيّ وقال لي هل نحن في مأمن من ان يسمعنا احد وهل عندك مكان للسر

فقلت نعم لا احد يسمعنا هنا وخادمي لا يعرف الانكليزية وانا على ما تعهد

فقال حسنًا وانا خبير بقراءة ضمائر الناس ولا تحسب اني اتملقك اذا قلت لك انني توسمت فيك سمات الاخلاص من اول يوم رأيتك الاخلاص مع التعقل . واراك تحب وطنك وتغار اليهِ غيرة صحيحة وتعلم ما يضرهُ وما ينفعهُ وكنت اود ان ابقي حديثي هذا الى ان يتم لنا ابرهيم بك ما اخذ يتلوهُ على مسامعنا من الاخبار التي كانت اساسًا للثورة العرابيَّة والاحتلال الانكليزي لاني واثق انها تبين الامور التي اريد ان اكشفها لك ولكني اخاف ان يأزف الوقت وتفوت الفرصة ولهذا بادرت وجئت اليك لاطلعك على سر لا يعلمهُ كثيرون ان دسيسة سيذهب فيها الابرياء ضحية الطماعين . وليس غرضي من ذلك مجرد اطلاعك على هذا الخبر بل الاعتماد على مساعدتك الكبيرة فان اللورد هارفي أُخبر منذ ايام بتفاصيل

دسيسة كبيرة يراد بها اضرام نار ثورة في البلاد حتى تضطر الحكومة الانكليزية ان تشهر حمايتها عليها وقد تضطر ان تحارب دولة او اكثر من دول اوربا بسبب ذلك . واتفق انني كنت قد سمعت عن هذه الدسيسة قبلهُ ووجهت نظرهُ اليها والذي اخبرني واخبرهُ اطلعنا على اسماء كل المشتركين فيها وعلى اليمين التي حلفوها ولما رأيتهُ مضطربًا في امرهِ اشرت عليهِ ان يأتمن رجلاً من الوطنيين العقلاء ذوي النفوذ و يرسلهُ الى اصحاب هذه الدسيسة وان شئت فقل اعضاء هذا الحزب ليبسط لهم واقعة الحال و يطلعهم على الغرض الحقيقي الذي يقصدهُ اولئك الذين حرضوهم ولا يزالون يحرضونهم فان الماليين الاوربيين لا يزالون مستسمنين مصر و يحسبون انها تستطيع ان تستدين منهم مئة مليون اخرى من الجنيهات ولكنهم يخافون من ازدياد النفوذ الوطني ونقلص النفوذ الاجنبي ولاسيما بعد المجاهرة بطلب المجلس النيابي و يظنون انهُ اذا فاز الوطنيون بذلك فلا يبعد ان يتسلطوا على المالية ونقع في البلاد ارتباكات كثيرة حتى لا تعود قادرة على ايفاء ربا دينها الحاضر اي انها تعود الى ما كانت عليهِ قبل الثورة فهم يريدون الآن ان يضرموا نار ثورة اخرى حتى تضطر انكلترا ان تمتلك البلاد نهائيًا فيصير دينهم بمأمن ولو تضاعف . وعندي ادلة كافية على تعيين اسماء الرجال الاوربيين المشتركين في هذه الدسيسة وعلى ان بروغرامهم يشمل قتل جماعة من الوجهاء

فقلت لهُ اني اصدق انهم يكتبون و يستكتبون و يخطبون وينادون و يطلبون من اصدقائهم في انكلترا ان ينادوا باسمهم وقد يستأجرونهم لذلك ولكنني لا اصدق انهم يخرجون من القوة الى الفعل ومن الكلام الى اللكام . نعم يصيحون وينادون ولكنهم لا يقتلون احدًا ولا يرتكبون اثمًا فظيعًا مثل هذا

فقال قد تكون مصيبًا اذا كان الامر متوقفًا عليهم وحدهم ولكن الذي يستصعبونهُ هم ولا يستحلونهُ لا يستصعبهُ محرّضوهم ولا يستحرمونهُ وانا اؤكد لك انهم كتبوا اسماء الذين يجب قتلهم لاثارة الفتنة وساطلعك عليها حينما تأخذ على نفسك ان تشاركنا في الرأي وفي العمل وتردأ عن بلادك فتنة تعيدها ثلاثين سنة الى الوراء

فقلت اني افعل ذلك وامرُ بحسبان لورد هارفي اياي موضع ثقة

فقال اذًا تفضل وتعشَّ معهُ الليلة فانهُ طلب مني ان ادعوك اليهِ اذا اردت ان تلبي دعوتهُ

ولما وصل الى هذا الحد قرع الباب ودخل علينا صديق بلا استئذان ثم اعتذر انهُ توهم اننا اذنا لهُ في الدخول فاضطررنا ان نرجىء الحديث الى فرصة اخرى

الفصل الثالث عشر

بداءة الازمة

التفت السر صموئيل لوكاس الى ساعة كهربائية قائمة امامهُ وقال كيف يتأخرون عن الميعاد مضى ثلاث دقائق . ثم ضغط زرًّا كهربائيًا فدخل فتى عليهِ ثياب مقصبة الحواشي وقال نعم يا مولاي . فقال لهُ السر صموئيل الم يقل المستر جوزف والمستر ارنست انهما يحضران في الميعاد . وقبل ان يتم كلامهُ وقف بالباب رجلان في سن الكهولة احدهما نحيف الجسم اصفر الوجه خفيف العارضين والآخر بدين احمر الوجه جاحظ العينين فنهض السر صموئيل لهما وصافحهما فجلسا عن جانبيهِ وخرج الخادم واقفل الباب

ففتح السر صموئيل درجًا واخرج منهُ رزمة من المكاتيب بعضها بالعبرانية وبعضها بالايطالية وبعضها بالفرنسوية وبعضها بالانكليزية . وجعل يقرأُ عليهما المكتوب بعد المكتوب . والنحيف منهما وهو المستر جوزف ينتف شاربيهِ ولحيتهُ والسمين وهو المستر ارنست يمص الدخان من سيكار غليظ في فيهِ ثم يطلقهُ في الهواء فيصعد دوائر دوائر كأنهُ حلقات الاثير في رأي لورد كلفن

والمكاتيب من مصر من القاهرة والاسكندرية وطنطا والمنصورة والفيوم وهي تصف افتضاح السر ووقوف الحال وتنذر بالسوء وتدل على ان في البلاد حركة مثل الحركة العرابية تمامًا وهي في مبدإِها

ولما اتى على آخرها قرأَ كتابًا من لورد مكنزي يلومهم فيهِ على تأخرهم في اصدار اسمهم شركة قارون ويقول لعلنا اضعنا الفرصة فان كل الذين اكتتبوا هنا في مصر يقولون اننا اذا طلبنا الاكتتاب العمومي الآن لا نجد في مصر عشرة يكتتبون معنا واخاف ان تكون الحال كذلك عندكم ثم ان السنديكات قد انفق كل امواله وان لم ينجح الاكتتاب اضطرَّ الى توقيف العمل وضاعت عليهِ الاموال التي انفقها وقد بلغت حتى الآن نحو عشرين الف جنيه عدا الثلاثين الفًا التي اعطاها لاصحاب الامتياز ولا يبقى لديهِ الَّا عشرة آلاف جنيه من الستين الفًا التي هي رأس مالهِ

ولما قرأَ هذا الكتاب جعل السمين من الرجلين يكثر من مص الدخان واطلاقهِ والنحيف من نتف عثنونهِ واخذ السر صموئيل ينظر تارة الى سقف الغرفة التي هم فيها وتارة الى الاوراق التي بين يديهِ واخيرًا تكلم النحيف فقال

اتتني ايضاً مكاتيب خصوصيَّة تؤيد مكاتيبك ولا بد من المبادرة الى اغتنام هذه الفرصة قبلما يشيع الخبر ولا بد ايضاً من ذهابي الى باريس بنفسي للاتفاق مع السماسرة وانما تدبران الامر معهم هنا . كم عندنا من الاهلي والزراعي والعقاري والدائرة والواحات والدلتا واللوكندات المصرية . ففتح السر صموئيل دفترًا كبيرًا امامهُ وقال عشرة آلاف من الاهلي وخمسة عشر الفاً من الزراعي واثنا عشر الفاً من الدائرة ومئة الف من الواحات وتسعة آلاف من الدلتا واربعة آلاف من اللوكندات وهي تضرب معاً نحو ستمائة وخمسين الف جنيه حسب السعر الذي اشتريناها بهِ وتساوي الآن حسب الاسعار الحاضرة مليوناً و٢٧٠ الف جنيه . وعندنا ايضاً ودائع تساوي نحو مليونين من الجنيهات وتصريفها موكول الى ارادتنا والرجل مصرٌّ على الاستعفاء وسيعلن ذلك في مجلس النواب بعد ثلاثة ايام . ثم التفت الى المستر ارنست وقال لهُ اتفق انت مع سماسرة البيع وبيعوا الى حد ثلاثة ارباع الاسهم واتفق انا مع سماسرة الشراء فنشتري مقدار ثمنها . والتفت الى المستر جوزف وقال لهُ فوّض الى سلمون وابراهام ان يبيعا الى حد الثلث وفوّض داڤيد وجماعتهُ ليشتروا قليلاً ولكنني لا اظن اننا نفلح في باريس لان الفرنسويين يعرفون كل شيء قبلنا وهم ابعد من الانكليز نظرًا في العواقب وعلى كل حال لا بدَّ لنا من ان نتظاهر مع المشترين لكي لا نكسر السوق اما الموحد وسائر سندات الحكومة فلا خوف عليها واذا عرضت بنزول اثنين او ثلاثة فلا بأس بالمشترى ولم يكد يتم كلامهُ حتى نظر الثلاثة معاً الى الساعة الكهربائية ونهضوا

وكان اليوم التالي يوماً مذكورًا في الاوراق المصرية لم تشاهد بورصة لندن وباريس مثلهُ وقف سماسرة البيع وسماسرة الشراء داخل السياج وتكأكأ الناس عليهم وكانت جرائد المساء قد نشرت خبرًا من مؤدّاهُ ان انكلترا اتفقت مع فرنسا على بسط حمايتها على مصر نهائيًّا . ذكرت الخبر كاشاعة من باريس ولم تكفل صحتها — سطرًا واحدًا نُقد بعضها عليهِ الوفاً من الجنيهات ونقلتهُ عنها الجرائد الفرنسوية وقرأهُ المشتغلون بالاوراق المالية قبلما فتحت البورصتان ولم تكذبهُ جرائد الصباح فاشتدَّ الحماس وتهافت الناس على مشترى الاوراق المصرية في بورصة لندن فارتفع الاهلي من ٢٤ جنيهاً الى ٢٧ والزراعي من عشرة جنيهات الى اثني عشر جنيهاً والدائرة من ٢٢ الى ٢٩ وتبعتها بقية الاسهم الصغيرة وتابعتها بورصة باريس وبلغ الجنون حدَّهُ في بورصتي مصر والاسكندرية . والمطّلعون على دخائل الامور وقفوا مدهوشين لا يصدقون عيونهم وآذانهم وانخدع بعضهم فاعتقد انهُ مخطئ في رأيهِ وان الاحوال سائرة من حسن الى احسن وانهُ لا بدَّ من استمرار هذا الارتفاع في

الاسعار فاندفع مع المشترين وفي آخر النهار بردت السوق قليلاً . وجاء في جرائد المساء ان بعض الذين ربحوا بارتفاع الاسعار مما اشتروهُ في النهار خففوا مراكزهم في المساء وهذا سبب ما حدث من الهبوط القليل وبشَّرت تلك الجرائد بصعود في اليوم التالي . ومضى يومان والاسعار تتراوح بين الصعود والهبوط . وفي مساء اليوم الثالث وقف رئيس مجلس النواب وقال اني اخبر هيئة المجلس والاسف ملءُ فؤادي ان وكيل حكومتنا في القطر المصري مضطر الي الاستعفاء تبعاً لمشورة الاطباء . وقرأ رسالة منهُ في هذا الصدد ثم عاد الى اطراء اعمالهِ واخلاقهِ وفضلهُ على كل رجل من ابناء الامة البريطانية الذين اعلوا منارها

فاخذت اعضاء المجلس دهشة وقال واحد من المتطرفين لجارهِ الم اقل لك اننا نرى النهاية قريباً فقال جارهُ اذاً هذا هو سر الحركة التي رأينا في البورصة منذ ثلاثة ايام الى الآن يا خراب بيتي وفقر عيالي

وأُعلن الخبر في مجلس الاعيان ايضاً فكانت الدهشة اشد . وقال احد الاعيان لجارهِ لورد بري اذاً سيأتي و ينازعنا مراكزنا فقال لهُ جارهُ اذا صحَّ ذلك فستضيع كل اموالنا التي وضعناها في مصر كيف عرف ذلك اولئك الشياطين سماسرة البورصة . خربونا خربونا . عندي اسهم وسندات بستين الف جنيه واشتريت اليوم بعشرين الف جنيه باعلى الاسعار اشتريت البنك الاهلي بثمانية وعشرين جنيهاً والدائرة بثمانية وعشرين ايضاً لا بدَّ لي من الذهاب الآن الى السمسار والاتفاق معهُ على البيع غداً قبل هبوط الاسعار . قال ذلك وخرج من المجلس وركب مركبتهُ وذهب توًّا الى مكتب السمسار فلم يجدهُ في مكتبهِ فعاد الى قصرهِ وجلس للعشاء مع زوجتهِ وهو لا يكاد يستطيع ان يفتح فاهُ وينطق بكلمة فسألتهُ زوجتهُ عن امرهِ فاخبرها بواقعة الحال وكان من فقراء الامراء واموالهُ لزوجتهِ ولا يزيد دخلها على ثمانية آلاف جنيه في السنة وثمن ما عندهُ من الاسهم المصرية يبلغ نصف هذه الثروة وكانت زوجتهُ قد عقدت النيَّة على الذهاب معهُ الى اسوج ونروج وقضاء شهرين من اشهر الصيف هناك واوصت جوهريًّا على عقدٍ من اللؤلؤ لا يقلُّ ثمنهُ عن ستة آلاف جنيه ورسم لها المهندس قصرًا جديداً تبلغ نفقات بنائهِ عشرين الف جنيه فاضطربت في امرها واسقط في يدها حتى كاد يغمى عليها ثم قالت لهُ الم اقل لك ما لنا وللاوراق المصرية الم اقل لك ان ابي خسرها خسارة كبيرة قبل الاحتلال الم اقل لك مالنا وللمخاطرة باموالنا القليلة

ثم انتبهت الى انهُ لا فائدة من هذا الكلام الآن بل تزيد بهِ نغص زوجها فصمتت برهة ثم تبسمت وقالت لهُ لا بأس يا تشارلي بع هذه الاوراق باي سعر كان غداً وانا عدلت

عن السفر وعن العقد وعن البناء ولا اظن اننا نخسر اكثر من عشرين الف جنيه فنوفرها من القصر والعقد ويجب ان نتعلم من هذا الدرس ان لا نخاطر ابداً

وقضيا بقية السهرة ولم يتكلما الاَّ قليلاً وذهب لورد بري الى سريرهِ وكأَن كابوساً على صدرهِ يكاد يخطف انفاسهُ فجعل يتقلب في فراشهِ ويحاول التنفس فيرى صدرهُ ضيقاً مضغوطاً وافكارهُ مضطربة تذهب بهِ الف مذهب في الدقيقة من الزمان ولا تستقر على حال فنهض وفتح شباكاً واطل منهُ الى ان برد رأسهُ ثم عاد الى سريرهِ واخذ يحسب ما عندهُ من الاسهم وكم يمكن ان تبلغ خسارتها وهو يلوم نفسهُ لانهُ تصرَّف باموال زوجتهِ ولم يكن يشكُّ في حبها لهُ وفي انها لم تقصد تعنيفهُ ولكن كلامها ثقل عليهِ وحاول النوم ولكن طار النوم من عينيهِ وانتقل بافكاره الى ايام صباهُ وما مر بهِ من العبر وكيف اضاع تلك الايام في اللهو والشهوات الى ان ضعف جسمهُ وانتهكت قواهُ ونفدت امواله واضطر اخيراً ان يتزوج امرأة اكبر منهُ سنًّا طمعاً بمالها لكي يحفظ مقامهُ بين اقرانهِ. ومرَّت امام ذاكرتهِ البنات اللواتي منَّاهنَّ بالاقتران بهِ ولو لم يكن بوعد صريح ولاسيما الفتاة التي هربت معهُ الى ايطاليا ومرضت فيها فدفنها في مقبرة ميلان

وكانت هذه الافكار تمرُّ في ذاكرتهِ تباعاً دراكاً كخيل الرهان او تسير سيراً وئيداً كأَنها النيافي يحملن جندلاً او حديداً فلا السريع يروي غلة ولا البطيء يكشف غمة. وجعل وريدا صدغيهِ يضربان كالمطارق الى ان كثر الفضول في دمهِ وفعل بهِ فعل الافيون فخدر مشاعرهُ الواحد بعد الآخر وامسى جثة لا حراك بها وكان قد مضى من الليل ثلثاهُ ونهض عند الضحى خائر القوى فقابلتهُ زوجتهُ باسمة ولم تذاكرهُ في الاسهم ولكنهُ شعر كأَن كل لحظة من لحظاتها سهم في فؤادهِ فتأَوه على الثروة الطائلة التي اضاعها بطيشهِ في زمن الصبا ولكن التأَوه لا يردُّ فائتاً

وظهرت جرائد الصباح وفيها خبر استعفاء وكيل انكلترا فطنَّت لهُ الآذان واسقط في يد الذين اشتروا اوراقاً مصرية في الثلاثة الايام الماضية لانهم اشتروها بثمن فاحش وقام في اذهانهم حينئذٍ ان سعرها سيهبط كثيراً فتهافتوا على البيع في ذلك اليوم ولم يجسر احد ان يسند السوق فهبطت هبوطاً فاحشاً وبلغ الهبوط في بعض الاوراق نحو ثلاثين في المئة في يوم واحد

ولكن الخسائر التي اصابت الناس في البلاد الانكليزية لا تعد شيئاً في جنب ما اصابهم في القطر المصري فان السماسرة حسَّنوا للناس ان الاسعار كلها ستستمر على الارتفاع وسهلوا عليهم المضاربة وساعدتهم البنوك عليها وانشئ بنكان او اكثر لتسليف النقود لاجل

المضاربة فصار الذي معهُ عشرة جنيهات يشتري بها ما يساوي خمسين جنيهاً واغري الناس بالارتفاع الذي توالى في الشهرين السابقين فاعتقدوا انهُ يسير على وتيرة واحدة فلم يحجم احد عن المضاربة وصار من يستهجنها يخشى ان يجاهر باستهجانها بل صار مَن يُعد جاهلاً بالنسبة اليهِ يعيّرهُ لانهُ لا يعرف اساليب الشغل والكسب . ولما رأى ان كل معارفهِ اشتغلوا وربحوا استجهل نفسهُ ايضاً وحاول مجاراتهم حتى لم يسلم احد من الوزير الكبير الى البقال والغسالة . فكم من وجل رهن اطيانهُ او باع املاكهُ او استدان بطريقة اخرى واشترى اسهماً باضعاف ما معهُ من النقود وكم من امرأة قصدت السمسار واعطتهُ كل ما اقتصدتهُ في حياتها وذخرتهُ لشيخوختها فابتاع لها اسهماً بما يساوي اضعاف النقود التي سلمتهُ اياها . وكم من تاجر اهمل تجارتهُ وجمع كل النقود التي استطاع جمعها واشترى بها ارضاً بورًا لا تساوي شيئاً في غير هذا الوقت . وبعض موظفي الحكومة ادعوا المرض حتى احيلوا على المعاش وجعلوا يقضون الوقت في ساحة البورصة . وكانت الظواهر كلها تدل على ان اسعار كل شيء آخذة في الارتفاع الى ما لاحدَّ لهُ . وبينما الناس غائصون في بحر الاوهام وهم يحسبونهُ ذوب اللجين وبانون احكامهم على الاحلام وهم يظنونها الحق اليقين جعلت الاسعار تهبط في لندن وباريس فذعر الناس في مصر وتهافتوا على البيع وحاول البعض ان يمسكوا السوق بالمواعيد والاماني ولكن الذعر استولى على النفوس فتدهورت الاسعار تدهوراً وهبط بعضها من عشرين جنيهاً الى ثلاثة جنيهات او اربعة والاسهم المعدودة من الطبقة الاولى كالاهلي والزراعي هبطت عشرة في المئة الى عشرين في المئة فطارت اموال الفقراء الذين اشتروا باضعاف ما عندهم

امرأة معيشتها ومعيشة بيتها من ابرتها جمعت في حياتها مئتي جنيه فاشترت بها خمسين سهماً من اسهم البنك الاهلي على امل ان يزيد ثمنهُ اربعة جنيهات فتتضاعف نقودها فهبط السهم اربعة جنيهات في يومين فخسرت كل غرش عندها ثم زاد الهبوط في اليوم الثالث فطالبها السمسار بما زاد لهُ عندها من الخسارة وقس عليها كثيرين من الذين سيقضون بقية عمرهم في الهم والتعب والنصب والتقتير ليفوا الديون التي تراكمت عليهم في بضعة ايام . وتدرج الهبوط الى اراضي البناء فالذي كان يحسب انهُ ربح بصفقة واحدة عشرة آلاف جنيه امسى واصبح فاذا ربحهُ كلهُ قد اضمحل واشرف على الخراب واستولت الكآبة على الناس فلم تعد ترى الاَّ وجوهاً كاسفة واناساً يندبون حظهم او يمنون انفسهم بتغير الحال ويبيتون بين الهموم والاحلام فلاهم يقطعون بالخسارة ولا بالنجاة منها ولا بفرج قريب او بعيد . يعللون انفسهم بالاماني ساعة ثمَّ تتغلَّب المخاوف عليهم فتوقعهم في القنوط

الفصل الرابع عشر

السر الخفي

الامور المذكورة في الفصل السابق علمتها وسمعت بها وانا مشغول البال بامر اهم منها مشغول بامر لهُ المساس الاكبر باستقلال البلاد وكنت اود ان لا اذكر كلمة عن هـذا الامر لولا علاقتهُ بالامور المذكورة في الفصل السابق فانهُ هو سببها والمحدث لها وقد ذكرتهُ هنا لكي اجلو بهِ احدى غوامض التاريخ

دعيت للعشاء عند لورد هارفي كما تقدم في فصل سابق وكانت الساعة العاشرة صباحاً حينما فارقني المستر مكنزي ومضى ذلك النهار وانا اشعر كمن يكاد قلبهُ يطير من بين جنبيهِ لا لانني لم آكل على مائدة لورد قبل ذلك فانني اكلت على موائد الوزراء واكلت مرةً على المائدة الخديوية ومراراً على مائدة لورد مكنزي بل لان ايثمان لورد هارفي اياي ووضعهُ هذه الثقة بي جعلاني استكبر نفسي واستعظم شأني هذا من الجهة الواحدة ومن الجهة الاخرى لم اكن اصدّق ما اخبرني بهِ المستر مكنزي وكنت احسب انهُ هو ولورد هارفي مخدوعان وقد خدعهما رجل داهية لغرض سياسي او مالي وكنت افكر في كيف اظهر خداعهُ وفرضت كل الفروض التي يمكن ان تفرض في هذه الحال ثم لمت نفسي لتعجلي في البحث عن امر ساقف على حقيقتهِ بعد ساعات قليلة ولكن المرء مفطور على فرض الفروض وكشف الغوامض

وزارني ابرهيم بك عصر النهار فاجتهدت لا ستلمح منهُ شيئاً عما اخبرني بهِ المستر مكنزي فوجدتهُ لا يعرف شيئاً صريحاً ولكنهُ يعلم ان البلاد مضطربة او ان فيها حركة قوية واناساً يدسُّون الدسائس لا لغرض حميد وقال لي انهُ لا يفهم كيف ان المحتلين يقرّبون اليهم فلاناً وفلاناً وفلاناً وهم من دعائم رجال الثورة ولا كيف يثقون بهم وهم عاملون على اثارة الفتنة في البلاد ولا يفهم ايضاً كيف دخل مناصب الادارة والقضاء اناس لا يضمرون للمحتلين غير البغضاء حتى بعض الانكليز الذين في تلك المناصب يجاهرون بتسفيه رأي حكومتهم وتخطئة سياستها . فقلت لهُ وما رأيك في غير الانكليز من الاجانب لاني احسب انهم هم العاملون على اثارة الفتنة فقال ان معرفتي بهم قليلة ولكن يبلغني ان رجلاً المانيًّا يكثر الاجتماع بالناقمين على المحتلين. فعرفت من يعني ولكنني لم اصدق ان لذلك الرجل يداً في ما بُلِّغت عنهُ

ولما طال الكلام في هذا الموضوع خفت ان يملهُ ابرهيم بك فحولتهُ الى البحث عن

الاراضي الزراعيَّة والمضاربات وشركة قارون وانتقلت الى الكلام على اولادهِ وسألتهُ هل صمموا النية على السفر الى اوربا فقال انهم لم يصمموا حتى الآن لانهم اشتبكوا باشغال مالية كبيرة يريد تخليصهم منها قبل السفر ولا يعلم هل يستطيع ذلك فان امينًا اشترى كثيرًا من اراضي البناء في هذين اليومين بغير مشورتهِ وعلى ضد رأيهِ اشتراها لا لحاجتهِ اليها بل بقصد المتاجرة وان شئت فقل المضاربة واذا اراد ان يبنيها لاستغلال ريعها لزمها الوف كثيرة من الجنيهات لانها الفا متر في الاسماعيليَّة وبضعة الوف في الدمرداش وقد وضع فيها كل دراهمهِ ودراهم اخيهِ وكتب عليهِ سندات بالباقي من الثمن ومن المحتمل او المرجح ان اسعارها ترتفع ايضًا خلافًا لرأيهِ ولكن اذا هبطت كما يخشى فالخسارة كبيرة جدًّا

ثم قال وفوق ذلك فان مسألة مس برون شغلت بالنا

فقلت وما هي مسألتها فاني استغربت كيف اني لم ارها عندكم منذ ايام

فقال نعم لم ترها وقصتها غريبة وطويلة فشرفنا الليلة فنقصها عليك نزهة لانها وقفت عليها كلها

فقلت اني مدعو الليلة للعشاء في مكان آخر ولكني سأتشرف بعد يومين او ثلاثة

ثم قام ليذهب ودعاني لاخرج معهُ في مركبتهِ للنزهة فلبيت طلبهُ شاكرًا وسرت معهُ في طريق الجزيرة والجيزة الى سكة الاهرام منتزه اهالي القاهرة في هذه الايام . فقد كان منتزههم منذ عشرين عامًا سكة شبرا كان الخديوي السابق يذهب اليها كل مساء فيتبعهُ نخبة السكان بمركباتهم لكي يحيوهُ ويرى بعضهم بعضًا لا بقصد النزهة واستنشاق الهواء النقي لان المتنزهين لم يكونوا يستنشقون الَّا غبارًا تثيرهُ المركبات . ثم انقطع الناس عن الذهاب الى شبرا بعد وفاتهِ وسكن الخديوي الحالي في سراي القبة فقصدوا دائرة الجزيرة واقاموا على ذلك بضع سنوات والمركبات تسير بهم الهوينا ذهابًا وايابًا حول ميدان الجزيرة الى ان أُصلحت سكة الاهرام فصاروا يقصدونها بمركباتهم ويرجعون في المساء وقد اكتست وجوههم وايديهم كساءً من الغبار بل نفذ الغبار ثيابهم وكسا ابدانهم . وزاد الطين بلة بمجيء هذه الاتوموبيلات او السيارات فانها ضربة العمران لاثارة الغبار زوابع واعاصير ولا سيما سيَّارات الشبان الذين يتسابقون بها في يوم جف ماء الرشِّ فيهِ فلم تعد ترى في ذلك الطريق غير مرادق الغبار ولم تعد تشم غير روائح الزيوت الكريهة التي تشعل في السيارات . اما حديقة الجيزة التي كانت تعطر الارجاء بشذى اريجها فقد مدَّ عليها

مظمار الخراب هُدم سورها ودُكّ قصرها وبست اشجارها ورياحينها . ذلك القصر البديع قوّضت اركانهُ واقتلع رخامهُ وامسى ركاماً من الانقاض وتلك الحديقة الغناء بيست خمائلها ولم يبقَ من اشجارها غير العذبة التي وصلت جذورها الى النيل

وقد رأيت ذلك مراراً في الشهر الماضي ولكنهُ لم يؤثر في نفسي كما اثّر تلك الساعة فان ابرهيم بك كان مشغول البال على ما يظهر فلم يتكلم الاَّ قليلاً وانا كنت قلقاً فلما وقع نظري على خرائب القصر وتذكرت ما كان عليهِ منذ عشرين عاماً وما كان فيهِ من فاخر الاثاث والرياش — بسط الغوبلين الفاخر الذي يندر مثلهُ في قصور الملوك وثريات البلور الكبيرة التي لا يدفع ثمنها الاَّ امير لا قيمة للمال عندهُ كاسمعيل ثم صيروتهُ متحفاً لآثار الاولين ومعرضاً لما خافوا عليهِ من عيون الانام فغيّبوهُ في غيابات الجبال واخفوهُ تحت صم الجنادل ولكن ابى الدهر الاَّ ان يفشي سرهم ويكشف سترهم فاستخرجت تلك الرفات من باطن الارض بعد ان استراحت فيها الوفاً من السنين وعُرضت لعيون اهل الشرق والغرب وابى طمع الانسان ان يبقيها مستريحة في قصر ملكي تتذكر بهِ مجدها السالف فابتاع القصر هادموهُ وخرّطوا لارضهِ الخرائط وباعوها قصد بناء المنازل والاكواخ ولا يعلم الاَّ الله متى يعود اليها العمران

وبلغنا سكة الاهرام وشاهدت حقول الحنطة على الجانبين تموج كالبحر الزاخر

فقال لي ابرهيم بك انظر بعهدك هل رأيت مثل جنون الناس في هذه الايام . هذه الحقول التي خلقت لزرع الحنطة ولم تستعمل لغير الزرع من حين اوجدها النيل وكان فدانها لا يساوي عشرين جنيهاً منذ عشر سنوات بيعت الآن بالمتر للبناء فهل عزم الناس على هجران بيوتهم في المدينة وبناء غيرها في هذه الحقول وفي اراضي الدمرداش والقبة والزيتون والمطرية وروض الفرج وكل ارض زراعية حول العاصمة بل في الصحراء الشرقية والجنوبية

فقلت صدقت اني مثلك لا ارى مسوّغاً لهذا العمل واخاف ان يتداعى قريباً

فقال ولماذا تخاف من ذلك هل انت سامع شيئاً

فقلت كلاَّ ولكن لم يحدث تغالٍ مثل هذا في بلاد من البلدان الاَّ عقبهُ الهبوط والفشل

فقال وما قولك في جو السياسة فان الدلائل لا تسرني وهي الآن كما كانت قبل الثورة العرابية تماماً وتنذر بشر قريب

فحاولت ان اكتشف منهُ شيئاً عما اخبرني بهِ المستر مكنزي فوجدت انهُ خالي الذهن

من هذا القبيل ولكنهُ شعر شعوراً عامًّا باضطراب الحال و بان تحت الرماد وميض نار. وشاهدنا السيدة نزهة واخاها في مركبة اخرى فتبسمت لي كأنها الزهرة طلعت من خلال الغيوم ولم تلبث الاَّ طرفة عين لانها لم تكد تنظر اليَّ حتى اطرقت وابعدت بها المركبة عن نظري فنسيت الموضوع الذي كنت اكلم اباها فيهِ ونسبت معهُ لورد هارفي واضطراب الاحوال وارتفاع الاسعار وكل المشاغل التي كانت تشغلني عنها وغصت في بحار الافكار ولم انتبه الاَّ والسائق يزعق و يشتم فان سيَّارة من السيارات كادت تلطم مركبتنا ولولا لطف الباري لجعلتنا هباءً منثوراً لانها كانت آتية بسرعة لا تقلُّ عن اربعين ميلاً في الساعة فذعر السائق منها واراد تحويل الجواد من طريقها وكأنهُ نسي انهُ اذا ادار الجواد شمالاً فالمركبة تنحرف يميناً وتقع في طريق الاوتوموبيل ولكن سائق الاوتوموبيل كان امهر منهُ فادرك ببداهتهِ الخطر قبل وقوعهِ وفي لحظة من الزمان ادار اوتوموبيلهُ فمرق كالسهم ولم يمس مركبتنا ولكنهُ لم يحد عنها الاَّ شعرة فحمدنا الله على النجاة وقلت في نفسي هذه هي الثانية والله ينجينا من الثالثة

ولبست في المساء وقصدت دار لورد هارفي فلاقاني غلام الى الباب واخذ ورقة الزيارة مني ووضعها في صحن من الفضة ودخل ونادى باسمي بصوت جهوري ثم فتح غلقي الباب الداخلي ونهض لورد هارفي لاستقبالي ودخل المستر مكنزي حينئذٍ وصافحني ولم يستقرَّ بنا المجلس حتى قرع جنك العشاء وجلسنا على المائدة وحدنا وافتتح لورد هارفي الكلام فقال

اخبرني المستر مكنزي عنك واظن اني صرت اعرفك كما يعرفك هو وقد فهمتُ منهُ انك تفضل الحالة الحاضرة لبلادك على كل حالة سواها اي ان نبقي البلاد لاهلها ونساعدهم مساعدةً في اصلاح شؤونها وتربية ابنائها الى ان يصيروا كفئاً لتولي شؤونهم بيدهم كما نتولى نحن شؤوننا بيدنا في بلادنا. ولا يخفى عليك ان عشرين سنة وثلاثين سنة لا تكفي لتربية امة على الحنكة السياسيَّة ولاسيما اذا كان بين ظهرانيها اناس كثيرون من امم مختلفة ولكلٍّ منهم مصالح خاصَّة ومصالحهم تضارب مصالح اهل البلاد فان الرجل السياسي منا ينتقل من وكالة سياسيَّة الى اخرى و يتدرَّج من منصب الى آخر عشرين سنة او ثلاثين سنة حتى يعلمهُ الاختبار وتحنكهُ التجارب فيشرع وعمرهُ عشرون سنة ولا يصلح ان يصير سفيراً الاَّ بعد ان يصير عمرهُ خمسين سنة او اكثر. وانتم لو تركناكم وشأنكم فمن المحتمل ان تستطيعوا السير وحدكم ولكن المرجح ان الذين لهم مصالح كبيرة في بلادكم يغلبونكم على امركم. ولو كنتم في بقعة من الارض بعيدة عن اوربا او لو لم يكن للاوربيين مصالح مالية كبيرة في

بلادكم لكان الامر اهون عليكم جدًّا اما وانتم في الحالة التي وجدنا كم فيها فيستحيل عليكم ان تنجوا من سيطرة الاوربيين بل تمسون تحت سيطرة دول كثيرة بدل دولة واحدة. وان كبار السن منكم ليذكرون كيف ان وكيل قنصل اصغر دولة من الدول الاوربيَّة كان يأمر وينهى في المديريات بل في العاصمة نفسها كأنهُ الحاكم بامرهِ. هذا والامر كلهُ كان مفوَّضًا اليكم ولم يكفَّ الطامعون بكم اذاهم عنكم الاَّ خوفًا منا او مجاملة لنا فان لم تصيروا اقوى مما كنتم اضعافًا مضاعفةً صارت حالكم اذا تركناكم اسوأ مما كانت قبل احتلالنا لبلادكم

وكان يتكلم بكلام فصيح منسجم كأنهُ يملي على كاتب او يخطب على منبر ويعزز معانيهُ بتقوية صوتهِ وتوضيح لفظهِ وكانت هيئة وجههِ وحركات عينيهِ تدلُّ على اخلاصهِ وصدق طويتهِ واتفق اني كنت جالسًا حيث ارى النور واقعًا على وجههِ فاستوضح ملامحهُ كلها

وبعد هذه المقدمة اخبرني بتفاصيل المؤامرة او الدسيسة وسلمني كل الاوراق المتعلقة بها ثم اعطاني اوراقًا مالية من اوراق البنك الاهلي بالف جنيه وقال انا اعلم انك في غنًى عن المال ولا تريد ان تخدم بلادك مأجورًا وهذا سننظر فيهِ في فرصة اخرى ولكن لا بدَّ لك من استخدام اناس لنيل مرامك وهؤلاء لا يخدمون الاَّ مأجورين وانا مستعد لمقابلتك كل يوم خميس بين الساعة الرابعة والسادسة وفي كل يوم آخر اذا دعت الحال بعد الساعة التاسعة مساء. فاخذت الاوراق كلها ووعدتهُ بان اطَّلع عليها واكتب خلاصتها واردها اليهِ وودَّعتهُ وانصرفت

الفصل الخامس عشر

الاستاذ المبلِّغ

رجعت من بيت لورد هار في الساعة الحادية عشرة وفتحت الاوراق والتقارير السرية وهي طويلة فلم استطع استيعابها في اقل من ساعتين ولم اكد اصدق عينيَّ لما رأيت اسماء المشتركين في تلك المؤامرة وكنت اعد بعضهم من اصدقائي او من الذين انا وهم على معرفة تامة ووفاق تام ولا سيما لما رأيت اسم امين افندي ابن ابرهيم بك بين اسمائهم فدهشت من ذلك واستعظمتهُ ونهضت الى سريري لعلي أُمتع براحة النوم فاريح دماغي. ولم اكد اضع رأسي على وسادتي حتى غلب عليَّ سلطان الكرى على غير ما انتظرت ولم استيقظ الاَّ وقد تضحوت واظنني حلمت بالثورات والمذابح ولكن لم يبقَ منها في ذاكرتي

الأَاثر طفيف نسيتهُ كلهُ بعد ساعة من الزمان

وكان لورد هارفي قد فوض اليَّ ان استخدم من اشاء وآتمن من اريد. وكنت قدعرفت اسم المبلغ وأُخبر هو اني مؤتمن على كشف هذه المؤامرة واحباط مساعي اصحابها وطُلب منهُ ان يأتي اليّ ويساعدني بكل ما اطلبهُ منهُ وكذلك أُمر حكمدار العاصمة ان يفعل كل ما اشاءه

وجاء في المبلّغ نحو الساعة العاشرة صباحاً واسمهُ صائب بك فرحبت بهِ وطلبت منهُ ان يقص عليَّ كيف اكتشف هذه المؤامرة فقال اني لست اول من اكتشفها وهي لم تكتشف اكتشافاً ولكن احد المشتركين فيها اطلعني على سرهم ولعلهُ فعل ذلك مخدوعاً او مستهوًى فاني لحظت منذ شهرين او ثلاثة ان اناساً مختلفين يترددون على دار في عطفة من عطفات باب الخلق وكنت ساكناً بالقرب من تلك الدار وبيتي يطل على مدخلها ولكن مدخلهُ من عطفة اخرى في شارع آخر فكنت ارى الذين يدخلون تلك الدار ويخرجون منها وهم لا يرونني وكثيراً ما شاهدت بينهم اناساً من الطبقات العليا من سكان العاصمة ومن الاقاليم وبعضهم من الاجانب مستوطني مصر وكنت ارى بينهم استاذاً اعرفهُ ويعرفني فظننت في اول الامر ان هناك نادياً علمياً لكنني لم ارَ لهُ ولا لما يتلى فيهِ ذكراً في الجرائد وانت تعلم ان الناس في مصر لا يتكلمون كلمة في نادٍ من الاندية الاَّ ويرسلون بها الى الجرائد لتنشر فيها وقد تنشر قبلما تقال حتى لا تفوت الفائدة احداً. فاستغربت ذلك ورغبت في كشف الامر وجعلت اراقب الآتين الى تلك الدار من وراء شباك مشبَّك واكتب اسماءهم في دفتري فرأيت انهم لا يزيدون على ثلاثين يتردد بعضهم دائماً وبعضهم احياناً وغالب مجيئهم اليها بين الساعة الخامسة والسادسة بعد الظهر وقد يأتون في المساء وقلما يدخلها اثنان معاً

ولما ترجح لي ان المجتمع ليس نادياً علمياً او ادبياً ظننت انهُ مكان للمقامرة لكنني كنت ارى بين الحضور اثنين من ابخل خلق الله وظننت ان البخل والقمار لا يجتمعان

والتقيت بذلك الاستاذ في احدى القهاوي وتجاذبنا اطراف الحديث وتمنيت امامهُ انشاء نادٍ ادبي نجتمع فيهِ للخطب والمذاكرات العلمية والادبية فتمنّى ذلك مثلي وذكر حاجة البلاد الى مثل هذه المجتمعات التي توسع المعارف وتؤلف ما بين القلوب ولم يشر الى اجتماعهم بكلمة ولا بحرف فسقيتهُ على حسابي واشرت الى مركبة لاذهب فيها للنزهة ودعوتهُ للذهاب معي فاجاب دعوتي شاكراً وجعلنا نتكلم عن رجال مصر وذكرت واحداً من الذين رأيتهم يترددون على تلك الدار واثنين او ثلاثة من غيرهم لأرى تأثير ذلك في

وجههِ فلم ارَ اقل دلالة على ما كنت اتوقعهُ فغيرَّت الموضوع وجعلت اتكلَّم عن حال مصر العموميَّة والنجاح الباهر الذي نجحتهُ في هذهِ الاثناء . فتأوَّه وقال الا تظن انهُ كلهُ سطحي ألا ترى ان امرنا ليس في يدنا نعم ان امرنا لم يكن في يدنا قبل الاحتلال ولكن انتم الاتراك منا وفينا يأتي الرجل منكم ويقيم في البلاد ويتزوج من اهاليها ويصير منهم لهُ ما لهم وعليهِ ما عليهم اما هؤلاء الاجانب فيستنكفون من الاختلاط بنا ولا يمكن ان يصيروا منا ولا ينفكون عن حسبان انفسهم سادة لنا وانا اعلم انك من اصدقائهم ولا استغرب ذلك لانك من الناقمين على حكومتكم ولكنك لو جرَّبت سلطة الاجنبي لفضلت جور اخوانك على عدلهِ . هذا ونحن الآن في الزقازيق ولا نعلم ماذا يفعلون بنا متى وصلنا الى الغمقات وامنوا اعتراض الدول عليهم

فتبسمت وقلت لهُ متى صرت في هذا الحماس كلهِ ألم يزوِّدوك هذه السنة

فقال لا وقد زودوا فلانًا وفلانًا دوني

فقلت ومن الملوم المستشار ام الناظر

فقال لا هذا ولا ذاك بل ناظر مدرستنا فانهُ يطلب الزيادة للذين يريدهم

فقلت اليس هو وطنيًّا

فقال بلى وطني واي وطني

فقلت اذًا دود الجبن منهُ وفيه

فقال الحق بيدك ولكن الحركة افضل من السكون وكل الذين تحرَّكوا استفادوا انظر الى فلان وفلان فانهم رقوهم كلهم تسكيتًا لهم

فقلت لهُ يا سلام إلى هذا الحد

فقال اقول لك الدنيا كلها مصالح وما من احد الاَّ ويخدم مصلحتهُ

وكأنهُ افاق الى نفسهِ او خاف من انتقادي عليهِ فقال ولكن يجب ان نضع خدمة الوطن فوق كل خدمة

فلم ارد ان اضيع هذه الفرصة بالانتقال الى الكلام المصنع الذي لا يستدل منهُ على شيء ولا يعبرِّ عما في النفس فحولتهُ الى الكلام الهزلي وقلت

اين الوطن واين محبة الوطن مصالح كلها مصالح يا اخي وكلهم تجار يتاجرون بنا قصد الكسب هل تعتقد ان فلانًا الذي يضرب على هذه النغمة دائمًا في قلبهِ ذرة من حب الوطن الا يمكنك ان تبيعهُ وتشتريهُ بالغرش اسكت يا اخي اسكت ولا تقل لي وطن ووطنية

فقال الحق في يدك ولكن كيف العمل والذي لا يغنّي على هذه النغمة يكفرونهُ

فقلت اي سنة اعطوك آخر زيادة

فقال منذ ثلاث سنوات وكان دوري في الزيادة هذه السنة فاعطاها ناظر المدرسة لزوج اختهِ والمستشار متأله ولا احد يستطيع ان يصل اليهِ ولا ان يشكو اليهِ رأساً

فقلت لهُ اتريد ان اكلمهُ في امرك

فنظر اليَّ مدهوشاً وقال اتعرفهُ هل هو صاحبك اعمل معروف يا اخي

فقلت اني سأفعل في اول فرصة

ولما رجعنا من النزهة هزّ يدي شديداً وذكّرني بوعدي فاكدتهُ لهُ وفعلاً قصدت المستشار في اليوم التالي واخبرتهُ عنهُ فطلب اوراقهُ وفحصها بنفسهِ وتمكن من زيادة راتبهِ ٣٦ جنيهاً في السنة . ولم يكد الخبر يصلهُ حتى طار فرحاً وفتش عني حتى التقى بي ودعاني الى العشاء معهُ في سنت جمس وفتح لي زجاجتي شمبانيا وصرنا من ذلك الحين من اعز الاصدقاء ولم افاتحهُ اولاً بامر الاجتماع مع انني كنت اراهُ يحضر مع الحضور لكنهُ هو اشار الى عدل المحتلين اذا وقفوا على حقيقة الحال والقى اللوم على الذين حولهم الذين يرونهم الابيض اسود والاسود ابيض . فوافقتهُ على ذلك ثم قال لي هل تعرف المستشار من عهد طويل

فقلت نعم اعرفهُ واعرف كثيرين غيرهُ وارى عيوبهم طفيفة بالنسبة الى عيوبنا وجلّ من لا عيب فيهِ ولكن الدنيا مصالح كما قلت لي ولا يبعد ان يكون لبعض الاوربيين مصالح في اخراج المحتلين من البلاد او في اكراههم على اخذها وهم يوغرون الصدور عليهم

فقال اصبت اصبت انا عارف انا عارف اصبت اصبت

وكان قد شرب الزجاجة الاولى وكاد يتم الثانية أما انا فاكره الاشربة الروحية وكنت امص كاسي مصًّا اكراماً لهُ فلما تمكنت الخمرة من رأسهِ سهل عليَّ اكتشاف كل شيء ففهمت منهُ انهُ مشترك في جمعيّة سياسية سرية القصد منها تغيير الحالة الحاضرة باية واسطة كانت محللة او محرمة وانهم يجتمعون في دار قرب باب الخلق

وقد لمت نفسي ولا ازال الومها لانني اغتنمت فرصة سكرهِ للوقوف على سرّهِ ولكن الضرورات تبيح المحظورات . وزادت رغبتي في معرفة اسماء الاعضاء كلهم وشركائهم في اوربا والعمل الذي يقصدونهُ والوسائل المؤدّية اليهِ وقلت ان ذلك لا يتم لي الاّ بالوقوف على قانون الجمعية ومحاضر جلساتها وترددت بين ان اغريهُ ليطلعني عليهِ من نفسهِ واكتفيت تلك الليلة بما وقفت عليهِ وعزمت ان ادعوهُ للعشاء في ليلة اخرى واتحيّن الفرص وما

تكشفهُ وعدت الى بيتي وراقبت مدخل الدار في اليوم التالي فرأيت الاعضاء يفدون اليها حسب العادة وصاحبنا الاستاذ معهم فاقاموا ساعتين وخرجوا ولم اتبين وجوههم حينما خرجوا لان الظلام كان حالكاً وليس في تلك العطفة الاَّ مصباح ضئيل

والتقيت بالاستاذ بعد يومين وقلت لهُ الا تتعشى معي الليلة فقال كلاَّ لا نني مدعو للعشاء عند بعض الاصدقاء . فقلت اذًا غدًا فاجاب بالايجاب واتفقنا على ان نتعشى في سنت جمس حسب العادة وجلسنا نتكلم في مواضيع مختلفة واشرت من طرف خفي الى جمعيتهم السرية فتجاهل امرها كانهُ لم يفهم شيئًا واتضح لي حينئذٍ ان كل ما اخبرني بهِ في المرة الماضية انما اخبرني بهِ وهو تحت فعل المسكر كانهُ في حالة الذهول او الاستهواء او في حالة اخرى من حالات الدماغ غير حالتهِ العادية وطرقت الموضوع على اساليب مختلفة حتى تأكدت انهُ خالي الذهن مما جرى لهُ في سكرهِ فقلت في نفسي اذًا الشخص المسؤول للجمعية السرية هو غير الشخص الذي افشى سرها لي وكلٌّ منهما غير مسؤول عما يفعلهُ الآخر فان كان هذا الرجل قد اقسم للجمعيَّة ان لا يبوح لي بسرها فقد ابرَّ بقسمهِ لان الذي باح لي هو شخص آخر غيرهُ وهذا الشخص لم يرتبط بقسم . اي ان في ذلك الرجل ادراكاً عامًّا وعقلين او شخصين ادبيين احدهما الذي اراهُ امامي الآن وهو المشترك في الجمعية السرية والآخر هو الذي ايقظهُ المسكر لما نوَّم هذا وهو الذي اطلعني على مدركاتهِ العموميَّة فما ضرني لو استخدمت هذا الشخص الآخر لمعرفة كل اسرار الجمعية وانقاذ البلاد من شرها ان كانت تنوي لها شرًّا اوكانت اعمالها تؤول الى الشر ولو عن غير قصد

ووافاني الاستاذ في الميعاد فاكلنا وشربنا واكثرت لهُ من صب الكنياك حتى غاب عن الصواب ودرَّجتهُ في الحديث الى الجمعية وما فعلتهُ حتى الآن وكنت اسألهُ وهو يجيبني طائعًا وانا اعي كلامهُ في ذاكرتي واذا خفت ان انسى شيئًا اكتبهُ في مذكرتي الى ان عرفت منهُ كل الامور التي تراها في هذه الاوراق . ولما رأيت ان المسألة هامة جدًّا لعلو شأن المشتركين فيها لم ارَ لي بدًّا من اطلاع ذوي الشأن على ذلك وباسرع ما يمكن حتى يتلافوا العلة قبل تمكنها ويردأوا الشر قبل وقوعهِ ولقد سرَّني انهم لجأوا الى الوسائل السلميَّة على ما يظهر من تفويضهم الامر اليك لتنصح المشتركين بالعدول عما يعود عليهم بالوبال وانا بين يديك ولا اضن عليك بما تظنهُ واجبًا لدفع هذا الشر

فشكرتهُ واعدت نظري في الاوراق معهُ واطلعتهُ ايضًا على تقارير غيرهِ من الذين اهتدوا الى شيء مما اهتدى هو اليهِ ولكنهم لم يقفوا على شيء من الحقائق التي وقف هو

عليها وسألتهُ عن الاستاذ وهل يمكن الوقوف على شيءٍ منهُ وهو صاحٍ . فقال كلاَّ ولا يتكلم في هذا الموضوع بصراحة الاَّ وهو سكران . فضربت لهُ موعدًا نجتمع فيهِ في بيتي فودعني وانصرف

وقمت عصارى النهار ومضيت الى بيت ابرهيم بك لعلي اجتمع بامين افندي واقف على شيءٍ منهُ فقابلتني السيدة نزهة بالبشر والايناس على جاري عادتها ولم يكن في البيت غيرها والخدم وعتبت عليَّ لانني اطلت الغيبة عنهم فاكَّدت لها انني كنت مشغولاً جدًّا فقالت نعم و يظهر ذلك من عينيك . ولم اكن قد انتبهت الى شيءٍ غير عاديٍّ في عينيَّ فقمت الى المرآة ورأيت ان عينيَّ تكادان تغوران في وجهي فقلت لها صدقتِ سهر دائمٌ وهمٌّ مقيم

فتبسمت وقالت سهر دائم اسمعنا الله عنك الاخبار الطيبة اين هذا السهر

فقلت بين المحابر والدفاتر كما تعلمين

فقالت عسى كتاب او رواية او تاريخ عن الفيوم وما فيها من الآثار وانا انتقدهُ لك

فقلت انَّى لي هذا الشرف وانا واثق انكِ تنتقدينهُ مثل اكبر علماء الآثار والتاريخ ولم انسَ الموقف الحرج الذي وضعتِ فيهِ المستر مكنزي لما جادلك في بحيرة قارون وسمكها

فقالت والشيء بالشيء يذكر ماذا جرى لشركة قارون فاننا لم نعد نسمع عنها شيئًا ولا ذكرها المستر مكنزي لنا . هل بلغتك قصة مس برون او السيدة مكدن فقد اكتشفنا اخيرًا انها ابنة السر هنري مكدن وهو من اغنى سراة الانكليز ومن الغريب انني قرأت خبر اختفائها في الجرائد الانكليزيَّة وقرأت وصفها فيها ولكنني لم اظن مطلقًا ان مس برون الساذجة في لبسها وسلوكها يمكن ان تكون ابنة ذلك البارونت المشهور

فانذهلت من كلامها وقلت لها كيف اكتشفتم ذلك ومن اكتشفهُ نعم ان السر هنري كان في مصر وقد رأيتهُ فيها مع لورد مكنزي اخي المستر مكنزي وأرى الآن شبهًا كبيرًا بينهُ وبينها ولكن كيف لم يذكر شيء في الجرائد عن هذه المسألة

فقالت لم يكشف الامر الاَّ منذ بضعة ايام فلم يفت الوقت على الجرائد لتطنطن فيهِ لا سيما وعندنا الآن ثلاث جرائد انكليزيَّة

فقلت لها لا اريد ان اتعبك كثيرًا ولكن كل احد يحب ان يقف على قصَّة غريبة مثل هذه فهل لك ان تقصيها عليَّ او هل اطمع ان مس مكدن نفسها تخبرني بها او هي سرٌّ مكتوم ويجب ان يبقى مكتومًا

فقالت ان القصة لا تخلو من سر وكنت اظن ان النساء وحدهنَّ يهتممنَ باستطلاع

الاخبار واكتشاف الاسرار وان الرجال يترفعون عن ذلك او تشغلهم عنهُ الشواغل

فقلت اضربي ولا ترحمي

فقالت اصبت منك اذًا مكانًا مؤلمًا

قالت ذلك واحمرَّت خجلاً فنسيت المي ووددت ان ترشقني بالف سهم مثل هـذا السهم وارى حمرة وجنتيها ولومها لنفسها وغلبتي عليها وقلت لها يا حبذا كل الم منكِ

فاطرقت قليلاً ثم التفتت اليَّ وقالت دعنا من الهزل هل تريد ان تسمع قصتها حقيقة

فقلت ألا تظنين انني اريد ان اسمعها

فقالت انني اعرف ما يشعر بهِ البنات مثلي ولكني لا اعرف ما يشعر بهِ الرجال

فقلت الا تظنين اننا كلنا في الهوى سوى ومن منا لا يحب الوقوف على الغريب

فقالت اسمع اذًا ولا تنظر اليَّ كثيرًا وانت تسمع لئلا اتلعثم

فقلت اذن اغمض عينيَّ

فقالت يظهر لي انك غير مهتم بسماع القصة فلماذا اتعب نفسي

فقلت لها انت وشأنك حضر امين افندي وهو يقصها عليَّ

ودخل امين افندي حينئذٍ فسلم عليَّ وقال اي قصة قصة مس مكدن او مس برون اني من اول يوم وقع نظري عليها قلت ان لها قصة غريبة فلم يصدقوني . اليس الامر كذلك يا نزهة

فقالت نعم وامين اشدنا فراسة ومع ذلك هو اكثرنا انخداعًا لهذا الحزب الذي يريد ان يقلب الدنيا رأسًا على عقب ولم ترشدهُ فراستهُ الى حقيقة امرهِ

فقال لها اريحي بالك يا ستي فقد صرنا تحت الف رقيب ورقيب وهذه الحال لاتخلصنا ولا بدَّ من ضرب الضربة القاضية فإما علينا وإما لنا . ولكن دعينا الآن من هذا الموضوع وهاتي اخبرينا بقصة مس برون فاني لم استوعبها ولا تتبعتها من اولها

ولما رأيت ان المقام لا يناسب لمذاكرتهِ في امر الجمعيَّة السريَّة نظرت انا ايضًا الى اختهِ نظرة المتوسل وقلت لها اننا كلنا اذان مصغية. ودخل الدكتور يوسف حينئذٍ وعرف اننا في انتظار قصة مس مكدن فقال انهُ يسمعها معنا لانها لم تخبر بتفاصيلها غير اختهِ

فانتصبت السيدة نزهة في كرسيها وتهيأت للكلام وقالت على شرط ان تملوا لي الجبوة اخيرًا فقلت نعم . فقالت اذًا اسمعوا

الفصل السادس عشر

قصة مس مكدن

السر هنري مكدن علَم لا يجهلهُ احد . ومن يجهل يخت مكدن ورقّاص مكدن وفولاذ مكدن وهو صاحب المعامل الكبيرة لسبك الحديد وبناء البوارج ومخترع طريقة عمل الفولاذ وقد أُخبرت عن ثقة ان في معاملهِ لاقلّ من خمسة عشر الف عامل فهو واسع الثروة عريض الجاه ولكنهُ لا يشبع والانكليز يعبدون الالقاب كما نعبدها نحن المصريين . وتوفيت لادي مكدن ام صديقتنا منذ عشر سنوات وتزوج ابوها في اسرة من اسر الامراء واسم حميهِ الجديد لورد مورلي وهو من اقدم الاسر النرمندية التي جاءت مع وليم الظافر الى البلاد الانكليزية لكنهُ عائش على اسمهِ لانهُ بدّد ثروتهُ . وابنتهُ لادي ايثل التي تزوج بها السر هنري كان عمرها اكثر من اربعين سنة لما تزوج بها وقد بلغت هذا السن من غير ان تجد لها خطيباً لفقر ابيها فلما تزوجت جعلت تساعد اباها بمال زوجها ولها اخ اكبر منها بنحو خمس سنوات وهو الآن في الخامسة والخمسين من عمرهِ ولم يزل عزباً وتوفي ابوهُ منذ سنتين واورثهُ لقبهُ وقصرهُ والديون التي عليهِ ولكنهُ اورثهُ اسماً طيباً وعلماً واسعاً وهو من حزب الوزارة المتصدرة الآن وقد انتظم فيها لما شكلت

ومضى عشر سنوات ولم ترزق لادي مكدن ولداً وليس لزوجها اولاد من زوجتهِ الاولى غير صديقتنا مس مكدن فاهتمت لادي مكدن بان تزوج ابنة زوجها لاخيها لتنتقل ثروة زوجها الى اهلها

ولورد مورلي انيس المحضر ولكنهُ قبيح المنظر فجعل يتردّد على بيت اختهِ ويجالس مس مكدن ويتودّد اليها ودرى ابوها بذلك فلم يستنكف منهُ لاسيما وان لورد مورلي ذكر امامهُ غير مرة ان الحكومة قد تمنحهُ لقب لورد جزاء الخدمة التي خدمها اياها بانشاء البارجتين اللتين بناهما لها في العام الماضي واعترافاً بفضلهِ في انشاء مدرسة الصنائع في بلدهِ

واكثر لورد مورلي التردد على بيت السر هنري وكانت لادي مكدن تتغيب حتى تضطر مس مكدن الى مقابلتهِ ومسايرتهِ ولكن لم يخطر ببالها قط ان رجلاً جاز الخمسين من العمر يفتكر بالاقتران بفتاة لم تبلغ العشرين . ومضت الايام وهو يزور بيت السر هنري في المدينة وخارجها وكثيراً ما كان يركب مع مس مكدن الاوتوموبيل او يخرج معها الى النزهة راكباً فرساً الى جانب مركبتها او يخرج الاثنان راكبين فرسين وهي تنظر اليهِ كما تنظر الى

ابيها لانهُ كان من سنهِ تماماً ولم يخامر ذهنها اقل ظن بما يقصده. وكان هو حذوراً يخشى ان يجاهر بما في ضميرهِ فتنفر منهُ و يعود بالفشل ولعل كثيرين من الرجال مثلهُ

قالت السيدة نزهة ذلك ضاحكة

فقلت اذا بلغوا سنهُ وحملهم الطيش على حب فتاة لا يبلغ عمرها نصف عمرهم

فقالت وما اكثر هؤلاء في هذه الايام ولكن ماعلينا ولنعد الى القصة

واتفق ذات يوم ان خرجت مس مكدن الى النزهة باوتوموبيلها ولم يكن معها غير السائق وابعدت عن ضواحي لندن في غابة غيضاء كانت ترغب في التردد عليها واذا بآلة المركبة وقفت وامتنعت عن السير فنزل السائق وجعل يعالجها بما عندهُ من الادوات وغابت الشمس واظلم الليل وهو يحسب في كل لحظة انهُ نجح في اصلاحها ثم يديرها فلا تدور الى ان عيل صبر مس مكدن وعزمت على الرجوع ماشية ومرّت الساعة الاخيرة من غير ان تمر مركبة في ذلك الطريق و بينما هي واقفة تفكّر في اقرب محطة او قرية تصل اليها اذا باوتوموبيل جاء نحوها مسرعاً ووقف امامها ونزل اثنان منهُ واحتملاها ووضعاها فيهِ واطلقا لهُ العنان فسار يسابق البرق ولم تغب عن رشدها مع شدّة ما اعتراها ولكنها حُصرت اولاً عن النطق لشدة دهشتها

وكان في الاوتوموبيل رجلان فقط فنظرت الى الرجل الجالس الى جانبها مغضبة وقالت لهُ ما هذا العمل وما هذهِ الشهامة أفي انكلترا رجال يخطفون السيدات من الطريق

فتبسم وقال لها ستغيرين رأيك فينا يامس مكدن

وجعل الاوتوموبيل يدور بهم في طرق متعرجه وكان الظلام قد حلك فلم تعد ترى شيئاً ثم دخلوا باباً في زاوية حديقة وساروا فيها الى ان وصلوا الى قصر لا انوار فيهِ فنزل الرجلان من المركبة وطلبا من مس مكدن ان تنزل فابت وطلبت منهما والغيظ ملأ عينيها ان يرداها الى بيت ابيها حالاً وجعلت تلوم نفسها لانها خرجت من غير سلاح وقالت انهُ لو كان مسدسها معها لطيّرت دماغيهما. وخطر ببالها حينئذٍ ان هذه المكيدة عليها يقصد بها قتلها لتذهب ثروة ابيها الى ابن عمها وكان شاباً خليعاً وليس لابيها وارث غيرهُ بعدها وكان حاقداً على ابيها لانهُ لا يهيل الاموال عليهِ من غير حساب وقد طلب منها ان تقترن بهِ فابت فاضمر لها الشر وتهددها غير مرة فاسقط في يدها ووقفت والعناد ملأ عينيها والتفتت اليهما وقالت ألا تعلمان ان سائق اوتوموبيلي يكون قد وصل الى البيت واخبر رجال البوليس فيقتفون اثركم ولا بدّ ان يلحقوا بكم حالاً فارجعوا وانا اعدكم انني انزل امام بيتنا ولا اخبر عنكم

فضحك واحد منهما وقال ايخطر ببالك يا مس مكدن اننا نفعل هذا الفعل من غير ان ندبر امر سائق مركبتكِ فان كان قد عاد الى البيت فيكون قد عاد ماشياً ولا يصل الى اقرب محطة قبل ساعتين فانزلي واستريحي واكدي اننا نكون في خدمتك ولا ينالكِ منا اقل اذًى ولا نطلب منكِ الاَّ ان تسلمي معنا بتغيير اسمك وسندعوكِ من الآن فصاعدًا مس برون ثم نادى خادمةً وقال لها تعالي يالوسي وخذي مس برون الى غرفتها واهتمي بامرها

فحضرت عجوز طويلة القامة بدينة الجسم جاحظة العينين خنساء الانف قصيرة اصابع اليدين تمشي الهرولاء ودنت من مس مكدن وحاولت ان تقبّل وجنتيها فدفعتها هذه عنها اولاً ثم خطر لها خاطر فندمت على ما فعلت ومدت يدها اليها ونزلت من المركبة وسارت معها

اما سائق اوتوموبيل مس مكدن فانتظر نصف ساعة ثم اخذ يمشي راجعاً الى اقرب محطة فوصلها نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً وطلب السر هنري مكدن بالتلفون واخبره بواقعة الحال وكان السر هنري قد ذهب في المساء الى مؤتمر الحديد والفولاذ لسماع خطبة من احد العلماء الفرنسويين وللمذاكرة في موضوع ذلك المجمع وانفضّ الاجتماع الساعة العاشرة فعاد الى بيتهِ ولم يدعُ احدًا من اصدقائهِ الى العشاء معهُ على خلاف عادتهِ لان افكارهُ كانت مضطربة وهو لا يعلم سبب اضطرابها ودخل البيت فوجد لادي مكدن في انتظارهِ وهي منحرفة الصحة مشغولة البال ايضاً واخبرتهُ ان مس مكدن خرجت بالاوتوموبيل الازرق الساعة السادسة ولم تعد ولا ارسلت خبرًا عن سبب تأخرها. فانتظراها نصف ساعة وقاما للعشاء وقبل ان يتما عشاءهما دخل خادم وقال ان سائق الاوتوموبيل الازرق يطلب الكلام مع السر هنري فاسرع السر هنري الى التلفون وسمع السائق يقصُّ عليهِ ما جرى لمس مكدن فامسى الضياء في عينيهِ ظلاماً واخبر لادي مكدن بخلاصة الخبر وادار التلفون الى دائرة البوليس السري المعروفة بسكتلنديارد ونادى رئيس البوليس واخبرهُ بما كان فقال لهُ الرئيس انتظرني فاكون عندك بعد ربع ساعة وللحال ركب اوتوموبيلاً واسرع الى بيت السر هنري ومعهُ ثلاثة من رجالهِ ودخل غرفة مس مكدن وقاعتها التي تجلس فيها وفتش لعلهُ يجد كتاباً منها لابيها فلم يجد شيئاً ثم جلس مع السر هنري على انفراد وسألهُ عما يظنهُ من امر الذين خطفوا مس مكدن فقال انهُ لا يظن شيئاً ولم يخطر ذلك على بالهِ قط. فسألهُ عن ابن اخيهِ وآخر مرة رآهُ فيها وآخر كلام تكلمهُ معهُ ثم قام الى التليفون وكلم السائق وسألهُ بضع مسائل وقام برجالهِ وركب الاوتوموبيل واسرع الى بيت المستر وليم مكدن ابن اخي السر هنري وسأل عنهُ فقيل لهُ انهُ دخل غرفتهُ منذ نصف ساعة لينام فاسقط في يدهِ وكاد يرجع ولكن خطر لهُ خاطر

آخر فنزل من الاوتوموبيل وطلب من الخادم ان يريهُ الغرفة التي ينام فيها المستر مكدن فادخلهُ اليها فالتفت واذا الرجل نائم حقيقة في سريرهِ فقال في نفسهِ يستحيل ان يكون لهُ مشاركة في اختطاف مس مكدن وهو نائم مطمئن البال وقبل ان يزايل هذا الخاطر ذهنهُ عاد الى الاوتوموبيل واخذ منهُ قنديلاً من الاسيتيلين ساطع النور جدًّا ولهُ زجاجة حمراء وصعد بهِ الى الغرفة التي فيها المستر مكدن واغلق الباب ولم يجسر الخادم ان يمنعهُ عن ذلك لانهُ عرفهُ من هو والقى ذلك النور الاحمر الساطع على وجهِ المستر مكدن فجعل هذا يحرّك رأسهُ متململاً كمن يحاول الاستيقاظ من سبات عميق ولكنهُ لم يفتح عينيهِ ثم صار يتنفس تنفساً عميقاً فناداهُ رئيس البوليس باسمهِ وجرت بينهما المذاكرة التالية

رئيس البوليس — اسمع يا مستر مكدن انت نائم فلا تستيقظ

المستر مكدن — نعم انا نائم نائم

رئيس البوليس — اين رأيت مس مكدن ابنة عمك آخر مرةٍ

— في بيت ابيها

— ماذا قال لك داڤس ورفيقهُ عنها

— داڤس ورفيقهُ داڤس ورفيقهُ نعم قالا انهما يخطفانها ويخفيانها و و و

— ماذا قالا بعد ذلك

— لا اعلم ولكنهما يقنعان اباها انها انتحرت القت نفسها في البحر لكي لا تقترن بلورد مورلي فاصير انا الوارث الوحيد لعمي

— وكم تعطيهما

— لم اعدهما بشيء لاني لم اصدق كلامهما

— الى اين يذهبان بها حينما يخطفانها

— لا اعلم ولكني اظن انهما يذهبان الى البيت الاخضر في غابة سلي

— البيت الاخضر هل ذهبت انت الى هناك

— نعم ذهبت مرةً

— هل يطلقان الكلب ليلاً او يبقى مقيدًا

— لا اعلم

— نَمْ الآن واسترح ولا تفكر بهذا الموضوع ابدًا

فانبسطت عضلات وجههِ بعد ان كانت مقبوضة وتنفس تنفساً طويلاً عميقاً ثم ادار وجههُ

وخرج رئيس البوليس برجالهِ وركبوا الاوتوموبيل واخذوا السر هنري معهم وساروا الى المحطة التي فيها السائق فاستفهموا منهُ ثانية فقال لهم انكم ترون اوتوموبيلنا في الطريق وهناك طريقان الواحدة تذهب يميناً والاخرى يساراً اما الخطفة فساروا في الطريق اليسرى الى الجهة الغربية من البلاد. وكان كاذباً بقولهِ لان الخاطفين سارا الى الجهة الشرقية حيث البيت الاخضر وكانوا يعلمون موقعهُ جيداً وخطر لرئيس البوليس ان ينوّمهُ حينئذٍ ويكتشف منهُ حقيقة الامر ولكنهُ خاف ان تفوتهم الفرصة فتظاهر كأنهُ صدّق قولهُ وامرهُ بالبقاء هناك الى ان يعودوا اليهِ ثم سار برجالهِ والسر هنري معهُ فوصلوا الى البيت الاخضر الساعة الثالثة بعد نصف الليل وكان باب الحديقة الخارجي مقفلاً فلم يتعذر عليهم فتحهُ وساروا الهوينا الى ان دنوا من الباب الداخلي فوثب عليهم كلب كبير كأنهُ الاسد ولم يكد يدنو من المركبة حتى القى عليهِ رئيس البوليس رداءً كبيراً غطاهُ بهِ وصبّ آخر قليلاً من البنج (الكلوروفورم) على منديل وجلس اثنان عليهِ وامسكا براسهِ واد فى الثالث المنديل من انفهِ ولم يكن الاَّ عشر دقائق حتى بنجوهُ واكثروا لهُ من البنج حتى امنوا شرَّهُ وعالجوا الباب حتى فتحوهُ ودخلوا ومصباح الاسيتيلين معهم ولم يكن الاَّ قليل حتى اهتدوا الى غرفة دافس ورفيقهِ فعالجوا اولاً باب غرفة دافس ولم يكادوا يفتحونهُ حتى نهض دافس ومدّ يدهُ ليتناول مسدسهُ ولكن رئيس البوليس وضع مسدسهُ في وجههِ بامرع من البرق وقال لهُ ارفع يديك فوق رأسك والاَّ اطرت دماغك فرفع يديهِ وهو يشتم ويلعن لا سيما وان نور الاسيتيلين الساطع كان ملقى على عينيهِ فبهرهُ حتى لم يعد يرى احداً وتقدم اثنان ووضعا القيد في يديهِ وبقي واحد واقفاً امامهُ والمسدس في يدهِ لكي يمنعهُ عن الصياح وذهب الثلاثة الباقون وفتحوا غرفة رفيقهِ وقيدوهُ مثلهُ وسألوهما عن غرفة مس مكدن فانكرا انها هناك فقالوا لهما من معكم في البيت . فقالا ليس معنا الاَّ خادمة واحدة وهي مدبرة البيت وتنام في غرفة عند السطح . وكانت قد سمعت اصواتاً في البيت فاوجست شرًّا ونهضت من سريرها ولبست ثيابها ونزلت فدنا رئيس البوليس منها والمصباح في يدهِ وقد القى نورهُ على وجهها وسألها عن اسمها فجعلت تتلعثم في الكلام كمن لا يزال النعاس رائناً على جفنيهِ فمدّ يدهُ واخنطف شعرها عن رأسها واذا بهِ لمة عارية وهي رجل لا امرأة . فدهش من جرأتهم وقال نعم وماذا تريدون فاجابهُ الرئيس ان دافس ورفيقهُ مقيدان وهما موقفان بامر الملك وانت موقف ايضاً فدلّنا على الغرفة التي فيها مس مكدن . فلعنهم ولعنها وسار امامهم الى غرفتها ولما دنوا منها سمعوها تقرع الباب من الداخل وتنادي وتقول انا هنا انا هنا

ففتحوا الباب ولما رأت اباها وقعت بين يديهِ وأُغمي عليها فاحتملوها الى الاوتوموبيل ليعودوا بها وفي تلك اللحظة وصل اوتوموبيل آخر وفيهِ ثلاثة من الشرطة فقيَّدوا داڤس ورفيقهُ ووضعوهما فيهِ وساروا بهم الى السجن لينالوا عقابهم

٦ وجرى ذلك كلهُ بين الساعة التاسعة ليلاً والخامسة صباحاً فلم تدرِ بهِ صحف الاخبار وظهرت صحف الصباح وليس فيها شيءٌ سوى ان السر هنري كلم دائرة البوليس السري عند نصف الليل فخرج رئيس البوليس اليهِ ويقال ان اللصوص هجموا على بيتهِ وهو غائب ودخلوا غرفة لادي مكدن وسرقوا منها حليّ تساوي اكثر من مئة الف جنيه وبينها عقد اللؤلؤ الذي اشترتهُ حديثاً بخمسة وعشرين الف جنيه . والخبر مختلق من اولهِ الى آخرهِ ولكن السر هنري وزوجتهُ وابنتهُ لم يشاؤوا ان يكذبوهُ . ومهارة البوليس السري عندهم مثل مهارتهِ عندنا اليس الامر كذلك

قالت السيدة نزهة ذلك وهي ملتفتة اليَّ وكنت انا مشغولاً بسماع القصَّة وتصوُّر مس مكدن في تلك الغرفة المظلمة بعد ان وقعت في ايدي ذينك الشيطانين افكّر بها وبكلام السيدة نزهة وحسن القائها وفصاحة لسانها فلما بادرتني بهذا السؤال لم يكن لي من الوقت ما يكفي لتوجيه افكاري منها الى سؤالها فاجبتها نعم لا ماذا قلتِ . فضحكت وقالت الظاهر ان قصة مس مكدن اشغلتك عن كل شيءٍ

فقلت لها ومن لا تشغلهُ هذه القصة وانتِ الشارحة لها

فقالت اني لم اشرح بل اختصرت غاية الاختصار وسأتم لكم الحديث في فرصة أُخرى

قالت ذلك ونهضت وقالت اعذروني دقيقة . وقد سكرتُ من حديثها لانني لم اسمعها قبلاً تتكلَّم بمثل هذه الطلاقة نعم سمعت مجادلاتها عن الفيوم وبحيرة قارون وسمعت لومها للحكومة لانها متهاونة بامر الاشقياء ولكنني لم اسمعها قبلاً تروي لنا قصَّة طويلة مثل هذه

ثم عادت بعد قليل فنهضتُ اجلالاً لها فاحمرَّت وجنتاها وقالت العفو . وادنيت منها كرسيًّا كبيرًا منخفضاً ممَّا تستريح السيدات بالجلوس عليهِ فشكرتني وجلست وقال لها اخواها اننا في انتظار بقية القصة

فقالت ظننت اننا اجَّلناها الى فرصة اخرى

ثم التفتت اليَّ وقالت الا تظن انني اتعبتكم بما يكفي الآن ونؤجل التتمة الى زيارة اخرى

فقلت الامر لكِ يا مولاتي ولكنني لو خيِّرتُ لاخترت ان اسمع تتمتها الآن اذا كان ذلك لا يتعبكِ

فقالت حتى تعفى من الزيارة الثانية

فقلت واذا كانت تمتها تتوقف على تكرير زيارتي فانا ارضى ان تخبرينا في كل زيارة كلمة واحدة على شرط ان لا تسأموا من تكرار الزيارات

فضحكت وقالت اما السآمة فانت تعلم ان لا محل لها في بيتنا اذا زارنا اصدقاؤنا واما القصة فاذا كان لابدّ من اتمامها الان فاسمعوا

عادت مس مكدن او مس برون الى بيت ابيها مكسورة الجناح خائفة ان تشيع عنها اشاعات كاذبة وجعلت تتتبع الجرائد اليومية جرائد الصباح وجرائد المساء فلم ترَ اقل اشارة اليها وكانت تخاف ان يحدث السائق احد مخبري الجرائد بامرها ولكن رجال الحفظ قبضوا عليهِ بحجة التواطىء مع داقس ورفيقهِ والقوهُ في السجن

واما ابن عمها فلم يظهر انهُ علم شيئاً ممَّا جرى لها والظاهر انهُ لم يحفظ شيئاً مما قالهُ لرئيس البوليس السري لانهُ لم يفه لاحد بكلمة في هذا الموضوع بل بقي على جاري عادتهِ يلج بطلب النقود من عمهِ فاذا حصل على شيءٍ منها ارتضى بهِ وغاب اياماً لا يسمع لهُ صوت

و بقي لورد مورلي يتردَّد على بيت ابيها حسب عادتهِ وصارت تسمع زوجة ابيها تشير اليهِ وكانت تنتقل من التلميح الى التصريح فتصفهُ بالعلم والعقل وفكاهة الحديث وشدَّة انعطافهِ على ذويهِ وتقول هنيئاً للسيدة التي تقترن بهِ لانهُ يعبدها فتعيش معهُ ملكة

ورأت ان اباها موافق لزوجتهِ على ذلك وكانت تحبهُ وتحترمهُ وتفتخر بسعة عقلهِ وعلو مقامهِ ولكنها لم تكن تصدق انهُ يضحي سعادتها لامر زري مثل التقرُّب من عيال الاشراف او الحصول على لقب مثل القابهم لا سيما وانها ابنتهُ الوحيدة فتألمت من جراء ذلك وشعرت كأن خنجرًا خرق فؤادها وقطع اصول انفتها وعزة نفسها . وكبر عليها ان تكلم اباها في هذا الموضوع ووقع نظرها ذات يوم على اعلان في جريدة يومية من سيدة تطلب فيهِ فتاة انكليزية تقرأ لها باللغة الفرنسوية لضعف عينيها فكتبت اليها وتمَّ الاتفاق بينهما كتابة ولبست ابسط ما عندها من الثياب ووضعت بعض لوازمها في كيس كبير ونزلت بهِ ونادت مركبة وسارت وكان من عادتها ان تخرج بثياب في ذلك الكيس وتذهب الى حي المساكين في مدينة لندن توزعها عليهم فظن الخدم انها ذاهبة لذلك على جاري عادتها اما هي فسارت بالمركبة الى قرب الحي الذي فيهِ بيت السيدة التي اعلنت انها محتاجة الى فتاة تقرأ لها وصرفتها هناك وسارت ماشية والكيس في يدها الى ان وصلت الى بيت السيدة فقرعت الباب ويداها ترتجفان فأتى خادم وفتح وقال لها ماذا تريدين فقالت اخبر مدام ده فور

ان مس برون حضرت حسب طلبها فاطرق الخادم هنيهة ثم اشار اليها لتدخل ومضى واخبر سيدتهُ وعاد بعد هنيهة وسار بها واصعدها الى غرفة كبيرة كالغرف التي في بيت ابيها ولكن الستائر كانت مسدولة على ابوابها وكواها فلم تكد ترى فيها شيئًا فوقفت هنيهة ريثما اتسعت حدقتاها فابصرت في صدر الغرفة سيدة متكئة على كرسي كبير فرفعت السيدة رأسها اليها وقالت تعالي اهذا انت يا مس برون تعالي حتى اراكِ . افتح النور يا داڤي افتح النور . ادني مني اقتربي اقتربي ولا تخافي . طيب طيب . ثم قرعت جرسًا كهربائيًا الى جانبها فاتت امرأة قصيرة القامة نحيفة الجسم كأنها جلد بسط على عظم فقالت لها مدام ده‌فور خذي مس برون الى غرفتها لتضع امتعتها ثم عودي بها الى هنا

وما جرى لها في بيت مدام ده‌فور يطول شرحهُ وقد اقامت هناك شهرين لقيت فيهما الامرين لا من مدام ده‌فور نفسها لان تلك السيدة كانت من فضليات النساء وارقهن قلبًا على حدَّة طبعها ولكن من خدَمها وقلة ادبهم ومن ابن مدام ده‌فور وهو شاب متهوّر احبَّ مس مكدن وظنها من البنات المستضعفات ولما كاشفها بحبهِ ورأى منها الانفة والشمم ثاب اليهِ عقلهُ وجعل يغير سلوكهُ لاجلها فصار يقيم اكثر اوقاتهِ في البيت وكان لا يدخلهُ الاَّ في اواخر الليل لينام فيهِ ولكن درت امهُ بحبهِ لها فاضطهدتها اضطهادًا مرًّا لانها كانت تجهل اصلها حتى اضطرَّت ان تعلن في الجرائد انها تود ان تأتي الى القطر المصري رفيقة مع سيدة واطَّلعتْ على الاعلان وكاتبتها فتركت مدام ده‌فور برضاها ولم تدَع ابنها يعلم بذلك وخرجت من بيتها سرًّا وجاءت معي الى هنا والسلام عليكم

فعجبنا من هذه القصة وشكرت السيدة نزهة وقلت لا فضَّ فوكِ . وقال لها الدكتور يوسف الم يظهر لكِ من كلامها ان ابن مدام ده‌فور كان يحبها حقيقة وانها هي كانت تحبهُ ايضًا

فقالت ياسلام اوَ تريد ان تعرّفني ومتى كان البنات يبحن باسرارهنَّ واسرار اخواتهنَّ

فقال فهمنا ياستي فلا تؤاخذينا

فقالتِ لا تقل فهمنا ولا ما فهمنا فاني لم اقل شيئًا ولا يحق لي ان اقول شيئًا في هذا الموضوع لان مس مكدن لم تبح لي باسرار قلبها وكل استنتاج قد يكون في محلهِ وقد يكون بعيدًا من الصواب بعد المشرق عن المغرب وعلى كل حال هي راجعة الآن مع ابيها وقد طلبت منها ان تكتب قصتها وما لقيت في بيت مدام ده‌فور لانها مؤثرة جدًّا وقد بقيت ثلاث ليالي تقصها عليَّ ولو كتبتها لملأت مجلدًا وافادت في تهذيب اخلاق الشبان وفي الاهتمام باختيار الخدم لئلاَّ يفسدوا اخلاق الاولاد

الفصل السابع عشر

مغاضبة المحتلين

لما اتمَّت السيدة نزهة قصة مس مكدن كان ابرهيم بك قد عاد الى البيت وغابت الشمس فاستأذنتَ في الانصراف فلم يؤذن لي وقال ابرهيم بك بل تتعشَّى معنا ووافقهُ ولداهُ ونظرت السيدة نزهة اليَّ نظرة ظاهرها التوسُّل وباطنها الامر المطاع وقالت نعم تتعشَّى معنا وابي يتم لنا قصة الثورة العرابية حتى يكون يومنا كلهُ قصصاً بقصص

فقلت يا حبذا الف امر مثل هذا الامر . ولكن لا بدَّ لي من اخبار خادمي حتى لا ينتظرني وحتى يعرف اين انا لاني كنت منتظرًا واحدًا يزورني الليلة . فقمت الى التلفون لاخبر خادمي فقال الدكتور يوسف تمهَّل . ما قولكم في الذهاب الى الجزيرة وتناول العشاء فيها فقالت اختهُ احسنت فان هذا الحر الباكر يكاد يزهق نفوسنا ثم نظرت الى ابيها تطلب مصادقتهُ وكان يشعل سيكارتهُ فقال لا بأس فاني اذهب معكم على شرط ان نجلس وحدنا منفردين . فقال امين افندي هذا سهل جدًّا نجلس بعيدين عن كل احد على ضفَّة النيل

وكنت ارى ذلك المطعم في طريقي الى الجزيرة في اولهِ عن اليمين بين النيل والطريق ولكنني لم ادخلهُ من قبلُ فاستحسنت رأيهم

وقالت السيدة نزهة ألا تدعون المستر مكنزي للعشاء معنا فانهُ يريد ان يسمع تتمة اخبار الثورة على ما ظهر لي

فقال الدكتور يوسف بلى ندعوهُ ثم قام الى التلفون ودعاهُ للعشاء معهم في لوكندة زندر على النيل الساعة الثامنة مساءً

فقلت اذا كان الامر كذلك فاسمحوا لي بالذهاب الى بيتي الآن ثم اوافيكم الى هناك في الساعة المعينة . فسمحوا لي والتقيت في طريقي بصديق لي كنت اعرفهُ من عهد المدرسة وهو من اعضاء الجمعية السرية فتصافحنا ومشينا سويةً وقبل ان يطول الحديث اظهرت عتبي عليهِ لانهُ لم يشركني في جمعيتهم . فتجاهل امرها ولكنني اخبرتهُ بكثير مما اعرفهُ عنها حتى لم يعد يشك في اني واقف على كل امورها فقال نعم وانت ترى اننا نجحنا نجاحًا باهرًا فاضطررنا وكيل المحتلين الى الاستعفاء

فقلت ان كان الامر كما تقول فقد عملتم على خراب البلاد واوقعتم القطر المصري في ضيقة مالية تستحكم حلقاتها حتى تخنق الزراعة والتجارة

فقال هذه واقعة الحال الآن ولكن هذه الازمة مفتعلة اوقعنا فيها اصحابك حتى نكفّ افواهنا عن الكلام ونتوسل اليهم ليفرجوا كربتنا. ولكن لن نفعل. ولا بدّ من ان نلتجئ الى الفرنسويين فانهم اطيب عنصرًا وارحم وأرأف واقرب الى مساعدتنا بالمال

فقلت نعم ويهبونكم المال هبةً

فقال لماذا الهبة نستدينهُ منهم برباهُ

فقلت بربا طفيف اثنين او ثلاثة في المئة كما تستدين حكومتهم منهم

فقال كلا لا اظن انهم يدينوننا الآن باقل من سبعة في المئة

فقلت يا سلام سبعة في المئة وهل ذلك مرحمة منهم

فقال ولكن كيف العمل أليس ذلك ارحم من البنوك التي لا تقبل الآن ان تعطي غرشًا باقل من تسعة في المئة والغالب انها لا تدين احدًا لا برهن ولا بغير رهن

فقلت سبعة في المئة لننظر ماذا نفعل بهذه الاموال وكيف نستثمرها

فقال نوفي بها ديوننا المطلوبة منا الآن اقساطًا وفروقات

فقلت ومن اين نوفيها هي اخيرًا

فقال من ريع اطياننا لان ليس لنا مورد آخر للرزق

فقلت وما هي نسبة ريع الاطيان الصافي الى ثمنها

فقال نحو خمسة في المئة

فقلت بل قل اربعة او ثلاثة في المئة اذا اعتبرنا الاسعار الفاحشة التي اشترينا بها من الدومين ومن بعضنا

فقال نعم قد لا يكون الريع الصافي اكثر من اربعة في المئة

قلت فكيف نوفي ديونًا رباها السنوي سبعة في المئة ألا تكون النتيجة اخيرًا اننا نضطر ان نبيع اطياننا لكي نوفي ديوننا وماذا يصيب الاطيان اذا عرضت للبيع فان الفدان الذي يساوي مئة جنيه الآن لا يشتريهِ احد حينئذٍ بخمسين جنيهًا

فقال وكيف العمل اتترك اصحابك يتحكمون بنا كما يشاؤون ولا يفرجون كربتنا ولماذا لا نقول انهُ اذا استمرّ ثمن القطن على ما هو عليهِ او زاد حتى بلغ ٢٥ ريالاً كما نرجو تنفك هذه الضائقة من نفسها لان الزيادة في ثمن القطن وحدها تزيل العسر المالي فاذا بلغ الموسم سبعة ملايين قنطار وزاد ثمن القنطار جنيهًا فالزيادة وحدها تفرج القطر. ثم اني استغرب منك كيف انك تحسب ان الانسان يعيش بالخبز وحدهُ ألا تحسب ان لنا حياة ادبية حياة

قومية حياة سياسية اتريد ان نبقى موتى ولا شأن لنا يتحكم اصحابك بنا كيفما شاؤوا فقد استأثروا بالحربية والمالية والداخلية والحقانية والمعارف والاشغال . كل المناصب العالية في يدهم وكل شيء في يدهم يأتي الصعلوك منهم فيستبد ويأمر وينهى كأنهُ الحاكم بامرهِ افلم يحن لنا ان نستقل بانفسنا انبقى تحت وصاية الاجنبي ألم نبلغ سن الرشد

ودنونا حينئذ من بيتهِ فدعاني اليهِ ففتحت ساعتي ووجدت انني استطيع ان اقضي معهُ ساعة اذا اردت فقبلت دعوتهُ وجلسنا في مكتبهِ منفردين وكان محامياً ومكتبهُ في بيتهِ وعدنا الى حديثنا السابق فقال

الا تظن اننا بلغنا سن الرشد فان البلاد في ثروة عظيمة والامة كلها مستيقظة مطالبة بحقوقها وفوزها الاخير يشدد عزائمها ويحقق لها النجاح التام

فقلت وما هو النجاح الذي تنتظرونهُ او ما هو الامر الذي تطلبونهُ

فقال يا سلام أأنت غائب عن البلد ألا ترى اننا كلنا نطلب الجلاء وعود البلاد الى اصحابها . فقلت واذا لم يشأ المحتلون ان يجلوا فماذا تعملون

فقال نغاضيهم ونغاضبهم ونستعين باحرارهم عليهم ونبين كراهتنا لهم بكل واسطة ممكنة ولو اضطررنا الى ايقاد نار الثورة في البلاد . فقلت لهُ هب ان لك ديناً على احد من عمد البلاد وانت مرتهن اطيانهُ واردت ان تضع رجلاً من قبلك وعلى حسابك يراقب زراعة الاطيان المرهونة ويقبض ثمن المحصولات لايفاء قسط الدين وهب ان العمدة اراد طردهُ من اطيانهِ وانت لا تأتمن العمدة ليستلم ثمن المحصول ويعطيك اياهُ فماذا تفعل

فقال ابذل جهدي حتى ابقي وكيلي هناك ولكن اذا اثبت العمدة اخلاصهُ ومقدرتهُ على الدفع لم تبقَ لي حاجة بالوكيل

فقلت استرجع وكيلك من غير ان تقتنع انت ان العمدة مخلص لك وقادر على ايفاء الاقساط المطلوبة وعازم على ذلك . فقال كلاَّ

فقلت عليك نور هذا شأن المدينين من الاوربيين فانهم لا يثقون اننا قادرون على ايفاء الدين ولا اننا نقصد ذلك ودليلي على هذا انهُ يوم يُعلَم ان المحتلين عازمون على الجلاء تهبط اسعار الاوراق المصرية ولما استعفى وكيلهم امس هبطت الاسعار هبوطاً غير قليل فالاليون لايثقون بنا حتى الآن واعمالكم هذه تزيد عدم ثقتهم بنا

فقال وما دخل الماليين بالاحتلال والجلاء

فقلت أإلى هذا الحد ألا تعلم ان الاحتلال الانكليزي من اولهِ الى آخرهِ منتدب ومدبَّر

بسعي اصحاب الديون المصرية ولحماية مصالحهم وكل وزارة تقصد ان تعبث بمصالحهم يسقطونها في الحال . ولكن عقدة المسألة ليست هنا بل في امر آخر اذا عرفتهُ كما عرفتهُ انا تطن لهُ اذناك . فاعلم ان غرض جمعيتكم الذي ترمي اليهِ تعزيز سلطة انكلترا في القطر المصري لكي تزيد ثقة المداينين بالديون الجديدة التي استدانها القطر منهم والتي يحتمل ان يستدينها في القريب العاجل وقد أُنشئت جمعيتكم ونفخ في أُنوفكم طلب الجلاء لهذا الغرض لا لسواهُ

فقال هذا كلام لا يعقل لاني اعرف ان اكثر الذين يساعدوننا من افضل الناس واشدهم اخلاصاً لكل الشعوب المهضومة الحقوق ولا غرض لهم الاَّ مساعدة البشرية

فقلت وما ادراك انهم غير مأجورين باموال المداينين للغرض الذي اشرت اليهِ كما كان الذين اوقدوا نار الثورة العرابية يحركون الثورة هنا ومستأجروهم يضغطون على الوزارة في فرنسا وانكلترا حتى تهيأت اسباب الاحتلال وتم فعلاً

فنظر اليَّ طويلاً وهو صامت لا يتكلم كانهُ كان يفكر في ماقلتهُ لهُ ونظر الى سقف الغرفة واعاد نظرهُ اليَّ وهو يحرك سبابتهُ اليمنى . ثم قال قد يحتمل ان تكون مصيباً لان فلاناً اخبرني ان بعض الاوربيين كانوا يحرضونهُ هو ورفاقهُ على الثورة في زمن عرابي ولكن يصعب عليَّ ان اسيءَ الظن بفلان وفلان من اعضاء مجلس النواب الانكليزي ولماذا لاتنضم الينا لعلنا نصل الى الحقيقة من تبادل الآراء واذا شئت فاني اعرض اسمك غداً على لجنة انتقاء الاعضاء

فقلت حبًّا وكرامة . ومشيت الى بيتي وانا أُفكر في كلام هذا الرجل وفي الغشاوة المسدولة على عيون هؤلاء القوم وفي خطإ المحتلين لانهم لا يعطونهم مطالبهم المعقولة المشروعة ولانهم لا يزالون يكثرون من احضار الرجال من بلادهم ليقيموهم في خدمة الحكومة ولا يعتنون الاعتناء الواجب بانتقاء الاكفاء من الوطنيين وفوق ذلك لانهم يتركون عوامل التهييج تفعل فعلها في البلاد وهم قادرون على اخمادها في لحظة من الزمان اذا ارادوا فيستريحوا ويريحوا وكدت ارتاب في حسن نيتهم لولا علمي انهم لا يتعرَّضون لعوامل التهييج لئلا يتسع الخرق عليهم في بلادهم فيتخذ اعوان الثورة ذلك حجة عليهم . وعدت الى التفكير في دخولي الجمعية السرية عضواً فيها فتهللت في اول الامر حتى خطر لي انهُ قد يطلب مني الوعد بان لا ابوح باسرارها فلا تبقى فائدة من دخولي فيها بل لا اعود قادراً على استعمال ما اعلمهُ عنها الآن فوقعت في حيص بيص ورأيت اني اخطأت في قبولي ما عرض عليَّ

وجاء لي رجل كنت في انتظارهِ لاشغال خاصة فقضيناها وحالما انصرف اتى المستر مكنزي واخذني معهُ في مركبتهِ الى الجزيرة الى مطعم زندر

الفصل الثامن عشر

تتمة اخبار الثورة

مصر بلاد العجائب والنيل اعجب مافيها ولقد عرف القدماء كيف يتمتعون بمنظرهِ البهيج والنسيم العليل الذي قلما ينقطع عنهُ في زمن الحر فبنوا كثيرًا من مبانيهم الفخيمة على ضفتيهِ كهيكل لقصر وهيكل كوم امبو و كمدينة منف عاصمتهم الكبرى . واما المتأخرون فاهملوهُ كل الاهمال اما لانهم عجزوا عن تشييد المباني العظيمة التي لا يخشى عليها من فيضانهِ او لانهم خافوا ان تمر بهِ سفن الاعداء فتصل اليهم وكيفما كانت الحال فالضفة الشرقية من النيل حيث مدينة القاهرة لا تشمل الاَّ بولاق احقر احياء مصر والقصر العالي وقصر البرنس ابراهيم اللذين هدما الآن ليتاجر بارضهما وقشلاق قصر النيل والمباني الحديثة التي بنيت في قصر الدوبارة واما الضفة الغربية فاذا استثنينا قصر الجزيرة الذي بيع وجعل فندقًا فلم يكن عليها بناء آخر منذ بضع سنوات وحتى الآن لا نجد عليها الاَّ بضع بيوت الى جانب فندق الجزيرة وشرقي حديقة الجيزة . ولقد كان المنتظر ان تكون المباني منتظمة في عقدين متصلين متناسقين على الضفتين من ساحل بحر الروم الى اعالي الصعيد

ومما يستغربهُ الاجنبي ايضًا قلة استعمال النيل للنزهة فانك ترى القوارب البخارية مستمرة السير في كل الانهار التي تجري في المدن الكبيرة واما النيل فقلما ترى فيهِ قاربًا من قوارب النزهة نعم ان الذهبيات كثيرة فيهِ ولكنها لاصحابها وقلما يشاركهم فيها احد غيرهم ولعلَّ سبب ذلك شدة البعد بين طبقات السكان في هذا القطر فالطبقة العليا والوسطى طبقة التجار وموظفي الحكومة على غاية النظافة غالبًا في ثيابها وابدانها واما طبقة العمال والفلاحين فعلى غاية القذارة حتى يتعذر عليك ان تجلس مع واحد منها لخبث الرائحة التي تنبعث من عرقهِ وثيابهِ ولذلك فكل ما يجمع بين هذه الطبقات لا يفلح لان الفلاح يبتعد عن الخواجه او الافندي وهما يبتعدان عنهُ وزد على ذلك ان نساء الطبقة الوسطى والعليا من الوطنيين يبتعدون عن هؤلاء وعن هؤلاء فينقسم الناس الى ثلاث فرق قلما تجتمع معًا فتضطر سكك الحديد مثلاً ان تخصص اكثر مركباتها لركوب العمال والفلاحين وكل الطبقة السفلى من الشعب فيركبوا فيها رجالاً ونساء من غير تمييز ويفعلوا كذلك في مركبات الترامواي . وبعض المركبات لركوب النساء خاصة من الطبقة الوسطى والعليا وبقية المركبات للطبقة الوسطى والعليا فيركب فيها رجال الوطنيين ورجال الاجانب ونساؤهم . فالعادات مانعة من امتزاج الناس كلهم

بعضهم مع بعض ولذلك قلما تراهم يجتمعون بكل طبقاتهم في حديقة او مشهد عام على خلاف ما نراهُ في المدن الاوربية حيث تركب الترامواي فيجلس على يمينك احد الموظفين او احد التجار وعلى يسارك خادمة حاملة سلتها بيدها ونازلة لتشتري اغراضها من السوق . وتركب سفينة للنزهة في السين او الرون او التيمس فتجدها مملوءة باناس من كل الطبقات رجالاً ونساءً وكلهم بثياب نظيفة حتى لا تأنف من الجلوس مع احد منهم

جالت هذه الخواطر في بالي في لحظة من الزمان حالما دخلت المطعم ورأيت الجلوس فيهِ يعدون بالمئات وليس فيهم رجل من اصحاب العمم ولا امرأة من لابسات الحبرات بل كلهم من الاوربيين نزلاء القطر او المتشبهين بهم من الشرقيين ولم ارَ فيهِ امرأة واحدة وطنية من الخمسة الملايين من الوطنيات غير السيدة نزهة . والمكان جميل جدًّا جميل في موقعهِ على ضفة النيل جميل في حسن تنسيقهِ وترتيبهِ. خمائل صغيرة من الرياحين اقيمت بينها موائد الطعام وبُثت فوقها المصابيح الساطعة النور وكان ابرهيم بك واولادهُ قد سبقونا وجلسوا حول مائدة كبيرة منفردة على حافة النيل وقد زينت بالازهار فاستقبلونا حالما دخلنا وجلسنا بينهم كأننا كلنا من عائلة واحدة وجاء الندل بالاطعمة والاشربة المبردة ودار الحديث اولاً على جمال ذلك المكان وعلى هجوم الحر باكرًا قبل المعتاد بنحو شهر من الزمان

فقال رياض وكان قد جاء من المدرسة الزراعية ليتعشى معنا انهم زرعوا القطن في ارض المدرسة قبل الميعاد بعشرين يومًا لشدة الحر فقالت السيدة نزهة كنا نقول ان البرد احضرهُ لنا الانكليز من بلادهم فماذا نقول الآن في الحر . فقال لها المستر مكنزي والحر ايضًا من بلادنا من الهند او من استراليا او من اوغندا

فقلنا كلنا برافو كل الضربات منكم . وقال لهُ امين افندي على مَ لا تريحونا وتريحوا انفسكم . فقال لهُ اهكذا يكون اكرام الضيف

فقال امين افندي شروط الضيافة ثلاثة ايام واما انتم فجعلتم الايام سنين وعشرات السنين فاجابهُ انكم انتم تمنعوننا من الخروج من بلادكم

فقال ابوهُ وهذا هو الصواب ولولا مشاغبة المشاغبين لخرجوا منذ زمن طويل ونحن كالمرتطم في الطين يزيد غوصًا فيهِ كلما زاد حركة للخروج منهُ

واتفق جلوسي امام السيدة نزهة وكنت اذا دعيت الى الطعام في بيت ابيها اجلس عن يمينها او يسارها فلا اراها مواجهة اما هناك فجلسنا كيفما اتفق وكانت لابسة ثوبًا ابيض عليهِ شريط وردي دقيق وعلى رأسها برنيطة ريشها ابيض كبير اطرافهُ وردية وشعرها تحتهُ

قصائب مجتمعة بعضها مع بعض وفي عنقها قلادة من الذهب الوهاج ووجهها مشرق كالبدر وقد توردت وجنتاها من شدة الحر او من حركة روحها في جسمها وكانها كانت تحاول ان لا تنظر اليّ لئلا تقع عيناها على عينيّ ثم ترى انها السيدة الوحيدة بيننا ولا بد لها من ان تشغلنا بالحديث وتوفق بين مشاربنا شأن السيدات المتجملات بالكمالات. والكلام لا يصل الى القلوب ما لم ترافقهُ لحظات العيون فلما بذلت جهدها في اطرافنا بالحديث وكان لا بدّ لها من ان تقع عيناها على عينيّ كلما التفتت صبغ الحياء وجنتيها. هذا هو تفسيري لتورد وجهها الذي لم اعهدهُ على هذه الصورة من قبل لان اقليم مصر يزيل حمرة الوجه وقد اكون مخطئًا مغترًّا بنفسي ولكن هذا الاغترار حلو المذاق اذا لم يعقبهُ الفشل باكتشاف حقيقة تناقضهُ

وأُتينا بالقهوة بعد الطعام وطالبت السيدة نزهة اباها بوعدهِ وكأنها كانت قد تعبت من الحديث وودت ان تلقي الحمل على غيرها

فقال ابرهيم بك اننا ختمنا الكلام بالتمرد العسكري الذي اسقط وزارة رياض باشا واقام وزارة شريف باشا وانال البلاد حكومة دستورية حسب وعد الخديوي لخاصتهِ قبلما تولى فقد أُخبرت عن ثقة ان جماعة من الماسون ساعدوهُ على اخذ الخديوية بعد ابيهِ ان هو وعدهم باعطاء البلاد حكومة دستورية ولولا ذلك لانتقلت الى حليم باشا حسب رغبة الباب العالي وبعض الدول الاوربية. ولما افتتح مجلس الاعيان وخاطبهُ كعادة الملوك عند افتتاح مجالس نوابهم اجابهُ رئيس المجلس وأحد الاعيان جوابًا ملؤهُ الشكر لهُ وكانت الدلائل كلها تدل على ان الخديوي راضٍ بما جرى والامة راضية ايضًا حتى ظن البعض ان تمرد الجنود كان مفتعلاً لاسقاط وزارة رياض باشا وانهُ كان بموافقة الخديوي ولكن المطلعين على دخائل الامور ينكرون ذلك كل الانكار

وشاع حينئذٍ ان مجلس الاعيان سينظر في ميزانية الحكومة وهذا يبطل عمل المراقبة المالية او يجعلها تحت امر مجلس الاعيان. وبلغ الخبر المداينين الاوربيين فقاموا وقعدوا واوجسوا شرًّا واقنعوا غمبتًا صنيعتهم لكي يمنع مجلس الاعيان من النظر في الميزانية ورأى غمبتًا ان فرنسا لا تستطيع ان تعمل من غير انكلترا لئلا تعارضها انكلترا وتبطل فعلها فتوسل اليها لتساعدهُ في ابقاء المراقبة على المالية المصرية وارسلت الحكومتان لائحة الى الحكومة المصرية تؤيدان فيها سلطة الخديوي وتمنعان مجلس الاعيان من النظر في الميزانية وتتوعدان الحكومة المصرية بالمداخلة الفعلية اذا حدث في البلاد ما يخل بالنظام الحاضر. فاغتاظ الاعيان من ذلك ومن الخديوي ايضًا حاسبين ان اللائحة اتت بايعاز منهُ واتحد مجلس

الاعيان مع الحزب العسكري مع ان شريف باشا كان قد نجح في التفريق بينهما

وبعد اخذ وعطاء دام نحو شهرين طلب مجلس الاعيان من الخديوي ان يغير الوزارة لانهم رأوا من شريف باشا الميل الى موافقة انكلترا وفرنسا . وقدموا لهُ صورة القانون الاساسي لمجلس النواب وطلبوا منهُ ان يمضيها وقالوا لهُ ان ليس لدولة اجنبية حق ان تباحثنا في حقوقنا من جهة النظر في الميزانية . فاضطر الخديوي ان يسقط وزارة شريف باشا وطلب منهم ان يدلوهُ على الاشخاص الذين يختارونهم نظارًا فطلبوا منهُ ان يعين محمود باشا سامي رئيسًا للنظار وكان ناظرًا للحربيَّة فعينهُ وعيَّن عرابي ناظرًا للحربية وكان بقية النظار من الحزب الوطني او العسكري ما عدا مصطفى باشا فهمي ناظر الخارجية

وكان شريف باشا يظن الى ذلك الوقت انهُ يمكن اصلاح الاحوال وازالة الخلاف بحسن السياسة اما حينئذٍ فرأى ان لا بدَّ من ارسال رجل من الاستانة تتبعهُ الجنود العثمانية لقمع الثورة وكان هذا رأي الخديوي ايضًا فاغتاظ زعماء الحزب العسكري من ذلك وتحالفوا على خلع الخديوي ومن ثم عاد مجلس الاعيان في يد الحزب العسكري

وصل ابرهيم بك الى هنا والتفت فالتفتنا واذا الدكتور عبد الله واقف فوق رأسي فرددنا لهُ التحية ودعاهُ ابرهيم بك للجلوس معنا . والتفتُّ الى السيدة نزهة لأرى تأثير قدومهِ فيها فرأيت اللون يزول من وجهها ثم يعود اليهِ كأنها قلقت من مجيئهِ في تلك الساعة ولم ادرِ ما تعليل ذلك . ونادى ابرهيم بك الخادم فاتاهُ بكرسي وجعل هو يعتذر عن مجيئهِ الينا فقال لهُ امين افندي على مَ الاعتذار يا اخي فان المكان واسع يسعنا ويسعك

فقال اعتذر لاني ضيف غير مدعوّ

فقال لهُ امين افندي لو دعوناك لحسبت علينا اجرة مشوارك نصف جنيه في هذه الازمة المالية

فقال لهُ رياض لعلك نسيت انهُ جرَّاح والجراح لا يدعى الاَّ الى العمليات الجراحية واجرة المشوار من جنيهين فصاعدًا الى عشرة او عشرين . أصحيح يا دكتور انك اخذت في مشوارك الى اسيوط مئة وستين جنيهًا

فقال نعم ولكنني بقيت هناك ثلاثة ايام

ولما رأيت ان الحديث دار على الاطباء والجراحين التفت الى المستر مكنزي وجعلت اكلمهُ بالانكليزيَّة . ثم دعانا الدكتور امين لمشاهدة المشي على البكر فشاهدناهُ نحو ساعة من الزمان وانفرط عقدنا ولما ودعت السيدة نزهة قالت لي زرنا غدًا فاطلعك على شيء غريب

الفصل التاسع عشر

باب الخراب

دعاني احد الاصدقاء الى العشاء معهُ في نادي الاطباء فاتيتهُ نحو الساعة الثامنة مساء لارى مَن يجتمع فيهِ منهم فلما دخلتهُ مررت امام غرفة فيها كثيرون حول موائد اللعب ولم اكد اتبين احداً منهم من انعقاد دخان التبغ فوق رؤوسهم ودخل بي صديقي تلك الغرفة فرأيت الدكتور عبدالله الجرّاح بين الجلوس فنهض وسلم عليَّ ورحّب بي وقدم لي كرسيًّا لاجلس الى جانبهِ واحضر صديقي كرسيًّا وجلس وقال لي الدكتور عبد الله ألا تشاركنا في اللعب فقلت لهُ مضى عليَّ الآن خمس سنوات لم امسك الورق بيدي فلا اريد ان اعود الى هذه العادة

وكانت عادة اللعب قد تمكّنت مني وخسّرتني اكثر الثروة التي ورثتها من ابي وفي ساعة واحدة عدت الى نفسي واقسمت لاختي يميناً مغلظة ان لا اعود الى مسك الورق بيدي ابدًا ومرّت خمس سنوات وانا مبرٌّ بقسمي فانقطعت الى اعمالي واطياني وافلحت ووجدت فيها اكبر مسلٍّ لي وبالاجتهاد والاقتصاد استرددت ما خسرتهُ وزدت عليهِ ولكن لما دعاني الدكتور عبد الله لمشاركتهم في اللعب شعرت بدافع يدفعني الى ذلك لا استطيع مقاومتهُ لكنني قلت في نفسي انهُ لم يبقَ في الامكان ان انعلّق على اللعب بعد ان تمكنت من تركهِ خمس سنوات لاسيما واني مشغول بمشاغل كثيرة فالجمعية السرية تشغل بالي دائمًا وصورة نزهة لا تفارق ذهني وهبوط اسعار الاملاك اوقع خللاً كبيرًا في ميزانيتي فصرت اخاف من هبوط الاجور اجور الاملاك واجور الاطيان فاخسر خسارة كبيرة. وجلس صديقي حالاً مقابلتي على مائدة اللعب ولما قطع الدكتور عبد الله الورق اعطاني منهُ والظاهر ان مشاغلي الكثيرة اضعفت عزيمتي فمسكت الورق غير محاذرٍ ولعبنا نصف ساعة ربحت فيها نحو عشرة جنيهات ثم قمنا للعشاء ورأيت ونحن على العشاء بعض الذين كنت اعلم انهم من الجمعية السرية فسقت الحديث معهم الى احوال مصر السياسيَّة وغصنا في الموضوع حتى لم اعد ابالي بالرجوع الى مائدة اللعب . وجاءني الدكتور عبد الله يقول اتكسب فلوسنا وتهرب فقلت لهُ هاك فلوسك واخرجت العشرة الجنيهات من جيبي ودفعتها اليهِ فقال الفلوس ليست لي لاني انا لم اخسرها بل خسرها غيري فقلت لهُ اعذرني الليلة على كل حال لاني مشغول مع اخواني هنا بامر آخر فتبسم وتركنا

وتبيّن لي من الحديث مع هؤلاء الرجال وكانوا اربعةً انهم قد عقدوا النيَّة على مناوأة المحتلين بكل واسطة ممكنة وانهم واثقون بالفوز عليهم لان احرار الانكليز يشدُّون ازرهم وقال لي واحد منهم سمعت الاستاذ فلاناً يقول ان رأيك مثل رأينا من جهة السعي وراء الاستقلال ولو كنتَ مخالفاً لنا في اسلوب هذا السعي

فقلت ومَن لا يريد الاستقلال لبلادهِ ولكن اذا اردنا الاستقلال وجب ان نسير اليهِ في طريقهِ لا في الطريق التي تؤدي الى ضدهِ

فقال هل سمعت او عرفت ان امَّة نالت استقلالها بالمسالمة

فقلت نعم هذه امة الترنسفال نالت استقلالها بالمسالة

فضحك وقال كلاَّ ثم كلاَّ بل نالتهُ بعد حرب شيبت الاطفال ولم تعطها الحكومة الانكليزية استقلالها الاَّ خوفاً من استمرار هذه الحرب ولو خفيةً اي بالمباغضة والمشاكسة ولقد احسنت صنعاً لان نتيجة ذلك كانت نزع الاحقاد من النفس. حتى استراليا وسكانها من الشعب الانكليزي نفسهِ لم ترضَ بغير الاستقلال ولم تنلهُ الاَّ وانكلترا مغلولة اليدين بحرب الترنسفال

واستمرَّ معنا الكلام الى الساعة الحادية عشرة وقد انسوا بي وكاد واحد منهم يدعوني الى الاشتراك معهم ولكني شعرت كأن رفيقهُ الذي كان جالساً الى جانبهِ داس على قدمهِ فانتبه الى نفسهِ

وكان اليوم التالي يوم جمعة فزارني صائب بك ومعهُ الاستاذ الذي كشف لهُ سر الجمعية السريَّة. زارني قبيل الظهر فتكلمنا في مواضيع مختلفة ودعوتهما للغداء معي فاجابا دعوتي فاكلنا وشربنا واستطاب الاستاذ ما عندي من الشراب فافرط فيهِ حتى غاب عن الصواب وجعل صائب بك يسألهُ عن الجمعيَّة السرية وهو يجيب بكل صراحة وسرد اسماء اعضائها وخلاصة اعمالها واخبرنا عن فروعها في الاقاليم المصرية وفي السودان ايضاً. والظاهر ان الذهول استحكم منهُ هذه المرَّة فكشف لنا اموراً تقشعرُّ منها الابدان واخبرنا ان الجمعية انقسمت منذ شهرين الى جمعيتين ظاهرية وباطنية والباطنيَّة اعضاؤُها من الاخصاء وهو معهم وذلك اني انكرت عليهِ ان تكون مقاصدها كما قال لان لي اصدقاء بين اعضائها مثل فلان وفلان ويستحيل عليهم ان يوافقوها على اعمال جهنميَّة مثل هذه فاباح لنا حينئذٍ بما لم يبح بهِ قبلاً وهو ان الجمعية قسمان وهؤلاء من القسم الظاهر فقط ولا علم لهم بما يجري في القسم الباطن ولا يختار احد للقسم الباطن الاَّ بعد الوثوق التام من اخلاصهِ وتفانيهِ

في افتداء الوطن وقال ان الجمعيات الفرعية مقسومة كذلك ودفتر القسم الباطن في خزنة الحديد ولها مفتاحان احدهما مع الرئيس والآخر مع الصرّاف

فسألتهُ عن الميعاد المحدَّد للعمل فقال بعد اربعة اسابيع تماماً فتضرم نار الثورة في البلاد كلها في يوم واحد وفي ساعة واحدة و يستولي القائمون بها على مخازن الاسلحة والميرة في مصر والسودان و يقوم حينئذٍ متطرفو الاحرار على حكومتهم و يلجئونها الى ترك البلاد

ثم جاشت نفسهُ واخذ يتقيأُ وجاء الخادم واعتنى بهِ الى ان فرغ من الاستفراغ فنظر اليَّ مدهوشاً واخذ يعتذر عمَّا بدا منهُ فطيبت خاطرهُ وكنت اشعر كمن ارتكب جناية كبيرة لاني اغتنمت فرصة سكرهِ لاقف على اسرارهِ ولكن المسألة هامَّة عامَّة تضيع فيها المصالح الخصوصيَّة ولا يجوز ان احجم عن اكتشاف خبر مثل هذا اذا كان اكتشافهُ لا يتأتى الاَّ على صورة تؤلم نفسي

وبعد قليل ودعني صائب بك والاستاذ وعاد صائب بك اليَّ بعد ساعة من الزمان وسألني عمَّا عوَّلت عليهِ فقلت لا اعلم ولم اكن اعلم ما يجب ان افعلهُ حينئذٍ

وقصدت لورد هارفي قبيل المساء واطلعتهُ على كل ما علمتهُ من التدابير المدبَّرة وعلى فروع الجمعية في الاقاليم والسودان فاكبر الامر جدًّا وقال انظر الى هؤلاء الناس كيف يحرشوننا ليخرجونا ونحن امبراطورية واسعة وكدنا نضيق بها ذرعاً ولكن الماليين يودون ان نضم مصر اليها ايضاً و يغرون هؤلاء الناس بما يوجب علينا ذلك وهذا امر لا نسعى اليهِ ولا نريدهُ. وبعد حديث طويل واخذ وعطاء قام الى التلفون واستدعى قائد جيش الاحتلال فنهضت لاودعهُ فودَّعني وقال شرّفني في الغد لننظر في المسألة ثانيةً

واتيت من بيتهِ ماشياً ومررت على نادي الاطباء فرأيت من نفسي دافعاً يدفعني الى دخولهِ فدخلتهُ بحجَّة ان ارى بعض اعضاء الجمعية السرية من قسمها الباطن لعلي اقف على شيءٍ منهم او لعلي انذرهم بسوء المصير ولم اكد ادخل حتى رأيت الدكتور عبد الله وبعض رفاقهِ الذين لعبوا معي في النوبة الماضية فاستدعوني الى اللعب معهم وقال لي بعضهم انهُ ليس من اللياقة ان اكسب منهم واهرب فجلست معهم وتناولت الورق. جلَسْت قبيل الساعة السابعة ومرَّت السابعة والثامنة والتاسعة وتعشيت معهم وعدنا الى اللعب ومرَّت ساعة بعد ساعة وانا اكسب منهم والذهب يتكوَّم امامي وانا اعزم ساعةً بعد اخرى ان اردَّ اليهم كل ما كسبتهُ منهم ثم قلت في نفسي اني انتظر الى ان ينقلب الزهر ضدي فاقوم واترك اللعب وارد اليهم كل ما كسبتهُ منهم ولما صار امامي نحو الف جنيه طلب واحد منهم ان يأخذ

البنك فاخذهُ مني فابتدأتُ اخسر فنهضت وكنا قد بلغنا الساعة الثانية بعد نصف الليل وقلت لهم انظروا كم خسر كلٌّ منكم فانا اردُّ اليهِ ما كسبتهُ منهُ . فقال الدكتور عبد الله هذا امر لا نقبلهُ ابدًا وما دام الزهر قد دار فاصبر حتى تخسر ما كسبتهُ . رأيتهُ يكلمني ويغمز الباقين بعينيهِ فاغتظت منهُ وجلست ولا ادري هل سحروني او استهووني او فعل بي نيكوتين التبغ المنعقد فوق رأسي فخدّر اعصابي حتى فقدت الشعور

مضى الليل وطلع النهار ونحن جلوس حول مائدة اللعب . وجاءنا الخادم بقليل من اللبن والقهوة ومرَّت ساعة بعد ساعة ونحن جلوس لا حديث ولا كلام غير الفاظ الشتائم للورق الى ان صارت الساعة الثانية بعد الظهر فاتي الخادم كلاًّ منا بقليل من الخبز واللحم فابطلنا اللعب نصف ساعة وقمت لاستنشق الهواء فكدت اقع مغمًى عليَّ وكنت قد خسرت خسارة باهظة وقام في نفسي ان لا بدَّ من الانتظار الى ان يدور الزهر فاسترد ما خسرتهُ واترك اللعب بتاتًا وكانت قوى جسمي قد خارت من السهر والجوع والقلق فخارت معها قوى عقلي ونفسي . وعدنا الى مائدة اللعب ورفاقي يكسبون الواحد بعد الآخر وانا اخسر وهم سكوت وانا لا اتنازل الى التذمُّر وكتبت لهم التحويل بعد التحويل الى ان مضى الليل التالي كلهُ وكادت الشمس تشرق فنهض الدكتور ابرهيم وامسك بيدي وقادني الى امام المرآة وقال انظر الى وجهك فهل تريد ان تقتل نفسك وتقتلنا معك . خسرت خسرت وهذا نصيبك ولكن حرام عليك ان تموت وتموتنا معك لكي تسترد خسارتك

فنظرت الى المرآة ولو لم ارَهُ واقفًا الى جانبي وممسكًا بيدي لما صدقت ان الصورة التي كنت اراها هي صورتي وقد كلح وجهي وتقطَّب جبيني وغارت عيناي . وخطر ببالي حينئذٍ ان التحاويل التي اعطيتهم اياها لا بدَّ من ان تُقدَّم الى البنك في ذلك اليوم وليس لي فيهِ ما يقوم بايفائها ولا بايفاء ربعها فضاقت الدنيا في وجهي واظلم النور في عيني والتفتُّ اليهِ وقلت لهُ ارجو من فضلك ان لا تقدموا التحاويل الى البنك اليوم بل تتركوها الى الغد وارجو ان تخبروني بمجموعها فعاد اليهم وجمعوا قيمتها واخبروني فاصطكَّت ركبتاي وقلت اذًا امهلوني ثلاثة ايام وقمت لامشي فلم استطع فسندني اثنان منهم واستدعوا مركبة اركبوني فيها وركب معي الدكتور عبد الله واوصلني الى بيتي وكان خادمي جالسًا في انتظاري ومستغربًا غيابي فلما رآني داخلاً على تلك الحالة والجرَّاح معي لم يشك في اني أُصبت بنازلة . واي نازلة فسرت الى سريري وانطرحت عليهِ واوصى الدكتور عبد الله خادمي ان يسقيني قليلاً من اللبن والكنياك وخرج

اين آمالي . اين مستقبلي . اين العمل السياسي الكبير الذي اؤتمنت عليهِ لانقذ بلادًا برمتها من الخراب والدمار . اين محبتي لنزهة وعزمي على مكاشفتها بذلك اين آمال اهلي بي . ذهب كل ذلك في ليلة واحدة . ضاعت حياتي . ضاع مستقبلي . يا الهي ما هذه البليَّة ما هذه المصيبة اين انتِ يا دموع الحزن يا دموع الندامة لتجلي ظلام عينيَّ . اين انتِ يا قطرات الدم النقي لتدخلي دماغي وتزيلي صدأ النصب من نفسي اما من صديقٍ اما من رفيق . كيف اسوّي اشغالي مع البنك ومن اين آتي بالنقود لاوفي ما تقيدت بايفائهِ . نعم لم اخسر كل ما املكهُ ولكن ثروتي اطيان وبيوت ومن يشتريها مني في هذه الازمة المالية . لم تفض دموع الحزن من عينيَّ من حين وفاة ابي وامي الاَّ الآن لكنها ليست دموع الحزن بل دموع الضيق والغيظ دموع الالم النفسي . هل ارزح تحت هذا الحمل هل انتحر هل اشمت خصومي بي واترك نزهة للدكتور عبد الله خصمي الوحيد . خارت قواي خارت قواي وتولاني سلطان النوم

فتحت عينيَّ بعد اربع وعشرين ساعة فرأيت الدكتور يوسف جالسًا امامي وحاولت الجلوس فلم استطع ولا عرفت حينئذٍ كم مضى عليَّ وانا نائم ولا ما بلغهُ من امري وتبسم وقال لقد شغلت بالنا ولكن الحمد لله على السلامة . فالنوم يرد القوى ولا شيء يقوم مقامهُ ثم نادى الخادم ليأتيني بكاس من اللبن والقهوة ولما شربتها اعتذرت لهُ عن اشغالي بالهُ على هذه الصورة . وقلت لهُ ان لا بدَّ لي من النهوض الآن لاني مشغول جدًّا وطلبت منهُ ان يصف لي شيئًا ينعشني ويقويني فتبسم وقال لي قضي الامر فلا تتعب بالك

فقلت واي امر . فقال مسألتك مع البنك

فاقشعرَّ بدني واضطربت في امري ولم ادرِ هل عرف حقيقة ما جرى لي ومن اخبرهُ فقلت لهُ زدني بيانًا

فقال ان ذلك اللعين عبد الله قد اخبرنا بخسارتك في نادي الاطباء وعرفنا انها حيلة مدبرة عليك منهُ ومن اولئك اللصوص رفاقهِ فمضى ابي امس الى البنك وكلم المدير واوقف دفع التحاويل

ما غريق تتقاذفهُ الامواج وقد خارت قواهُ وكلَّت يداهُ وخذرت رجلاهُ وانقطعت انفاسهُ فودع الحياة واستسلم للقضاء ثم مدت اليهِ يدٌ قوية وانتشلتهُ من غمرات الردى . وما سقيم استيقظ ليلاً فوجد بيتهُ يشتعل وقد امتدت النار الى كل غرفهِ واحاط بهِ اللهب من كل ناحية وكاد الدخان يخنقهُ ثم اختطفهُ رجل بيديهِ وطرحهُ على ملاءة تحملها الرجال

فوصل اليها سالماً . وما مجرم قضي عليهِ بالموت فودعهُ اقاربهُ وخلانهُ ونصبت لهُ المشنقة وعلق فيها وقبل ان تقبض روحهُ جاءهُ العفو من السلطان فانزل سالماً باشد دهشة مني وشكراً لمن انتشلني من مخالب الخراب والموت . ولم ادرِ كيف اخفي دهشتي او اعبّر عن شكري فانتصبت في سريري ومددت يديَّ الى الدكتور يوسف وقبضت على يدهِ ودموع الفرح في عيني وقلت لهُ افي يقظة انا ام في حلم ماذا جرى لي هل جننت هل سحروني

فقال هي غلطة ومن منا لا يغلط

فقلت واي غلطة أيقضي الانسان على نفسهِ في ليلة واحدة ويهدم كل ما بناهُ في حياتهِ ماذا فعلت وكيف انقدت الى هؤلاء الاشرار . ماذا قال ابوك عني وماذا قالت اختك ولا بدَّ من ان يكون الدكتور عبد الله قد طبّل وزمر الآن واخبر كل اهل مصر اني خسرت اموالي بالقمار . يالله العار يا للخجل اين اخبئ نفسي ما ذا جرى لي ياد كتور وما ذا اصابني

فاخذ يهون عليَّ مصيبتي واوصاني بملازمة فراشي الى ما بعد الظهر واوصى الخادم والطباخ بنوع الطعام الذي يهيأ لي وخرج وهو يقول ان اباهُ قد دبر امر البنك واني لا اخسر غرشاً واحداً . وكنت اعلم ان ذلك كلهُ من قبيل التطمين لي لا غير والاَّ فكيف لا ادفع كل غرش تعهدت بدفعهِ وقد ابيت فقيراً لا املك شيئاً اذا بيعت اطياني واملاكي باسعار ما يعرض للبيع عرضاً . وهل استطيع ان ابدأ الحياة من جديد . وماذا يقول عني لورد هارفي والمستر مكنزي وكل الذين كانوا يثقون بي وكيف اصبح في عيني السيدة نزهة لا بقاء لي في هذه البلاد ولا بدَّ من الرحيل الى اميركا او استراليا او اية بلاد اخرى

وزارني المستر مكنزي بعيد الظهر فاخبره الخادم اني مريض ودخل واخبرني بقدومهِ فامرتهُ ان يدخلهُ اليَّ ثم ندمت على ما فعلت فدخل واعتذر لانهُ لم يعلم بمرضي قبلاً وسألني عن حالي ولما رأيت انهُ لا يدري شيئاً من قصتي اطمأن بالي واخذنا في الحديث وتجنبت الاشارة الى الجمعية السرية على قدر طاقتي لاني شعرت اني لم اعد اهلاً للبحث عنها وتذكرت حينئذ قصة الجرذ الذي فقد قوتهُ لما أُخرجت النقود من جحرهِ فظن المستر ما كنزي اني خائر القوى من شدة المرض فلم يطل زيارتهُ ولا اخبرني بما صمموا عليهِ

لما كنت مستغرقاً في تومي بعد ذينك اليومين العبوسين اللذين فقدت بهما ما املكهُ كان الدكتور عبد الله جالساً في بيت ابرهيم بك ينفث سموم نميمتهِ ادخل اسمي في الحديث عرَضاً كما اخبرني رياض . ثم قال لم اكن اظن انهُ مولع باللعب الى هذا الحد فقد بقي يومين وليلتين جالساً على مائدة القمار حتى خسر كل ما يملكهُ نحو اربعين الف جنيه واذا

عُرضت اطيانهُ وعقاراتهُ للبيع لا اظن انها تباع بهذا الثمن وانا اشفق عليهِ ولولاي لبقي يلعب الى الآن وانا آسف جدًّا لاني كنت اودهُ واحسبُ انهُ من العقلاء ولكن القمار يتغلَّب على اكبر العقول فقد قرأت عن بعض وزراء انكلترا انهم ماتوا في فاقة شديدة من المقامرة

فقالت لهُ السيدة نزهة ومتى كان ذلك . فقال لها امس واول امس واضطررت اخيرًا ان انهضهُ بنفسي واضعهُ في مركبة وامضي بهِ الى بيتهِ ولولاي لقتل نفسهُ وانا اخاف الآن ان امضي واسأل عنهُ لئلاَّ يكون قد انتحر حقيقةً . لا تستعقلي احدًا ياستي نزهة ولا تخافي الاَّ من النهر الهادىء . انا اعرف هذا الرجل منذ سنين كثيرة وكان يقامر وقد خسر كل ما ورثهُ من ابيهِ ثم خدمهُ السعد ولمَّ حالهُ وعاد الآن فخسر في ليلة واحدة كل ما يملكهُ . الله يستر عليهِ . انا ارى في وجهكِ انكِ انتِ ايضًا متأسفة عليهِ . فقالت لهُ ما ادرانا ماذا جرى واصفرَّ وجهها وكأنها خافت ان يغمى عليها فقامت وخرجت

قال رياض وتبعتُها الى غرفتها فقالت لي اطرد هذا اللعين من هنا فانهُ هو السبب في خراب صديقنا فلان وانا اراهن على ذلك . ورأيت الدموع في عينيها فقلت لها قومي واغسلي وجهك ثم عدت الى الدكتور عبد الله لاني تركتهُ وحدهُ فقال لي ما لها فقلت لا شيءَ ثم جلست صامتًا فسألني عن ابي واخويَّ فقلت لهُ لا اعلم الى اين ذهبوا وكأنهُ شعر اني مستثقل زيارتهُ فنهض وودعني ومضى

هذا ما اخبرني بهِ رياض بعد حدوثهِ باشهر ولم استغربهُ لانني كنت اتوقعهُ من الدكتور عبد الله بعد ان رأيتُ منهُ ما رأيت

الفصل العشرون

الفراق

لما رأى الدكتور عبد الله ورفاقهُ ان البنك ابى دفع التحاويل واشرَّ عليها بالرفض قدموها الى المحكمة ورفعوا عليَّ قضايا طالبين مني قيمتها وتبرع امين افندي بالدفاع عني على غير رغبتي وحضر الى المحكمة وطلب المرافعة فاجَّلتها المحكمة الى ما بعد الاجازات على جاري عادتها لان قضاتنا حرسهم الله يشكون دوامًا من كثرة القضايا فيقضون الوقت في تأجيلها ومتى جاء الحر خافوا ان يذيب ادمغتهم فهجروا البلاد الى ربوع اوربا . وقد بقيت في تلك الجلسة الى آخرها لارى مقدار شغلهم فوجدت انهم حضروا بين الساعة التاسعة والعاشرة مع ان القانون يقضي بحضورهم الساعة الثامنة . ثم خرجوا بين الساعة العاشرة والحادية عشرة

للراحة كأنهم تعبوا من الجلوس ساعة واحدة . والراحة خمس دقائق ولكنها دامت اكثر من نصف ساعة وعادوا الى الجلسة فنظروا في قضيتين لا غير وانتهت الجلسة ولم يقيموا في كراسي القضاء اكثر من ساعتين

وكنت اود ان ادفع قيمة التجاويل لاصحابها ولو استغرقت كل ما املكهُ ولا يذكر اسمي معلقاً بلعب القمار لكن امين افندي منعني من ذلك وقال لي اخطأت بلعبك والاعتراف بالخطإ اشرف من اخفائهِ واما هم فخدعوك ولا حقّ لهم بغرش مما كسبوهُ منك وعندي احكام كثيرة حكمت بها المحكمة بفساد هذا المكسب فعلى مَ تضر نفسك لكي تمتعهم بنتيجة خداعهم وعندي دليل مقنع على انهم غشوك . وبمثل هذا الكلام اقنعني حتى رضيت بالمقاضاة ولكنني لم اكن اتوقع ان يحكم لي

وكأن السيدة نزهة رأت صغر نفسي فعطفت عليّ اكثر من عادتها لكي لا احسب انها ابتعدت عني بعد ارتكابي هذا الخطأ . وكنت قد صممت على مغادرة القطر المصري والذهاب الى اميركا او استراليا هرباً من العار فذكرت ذلك امامها عرضاً وقلت لها ان لي صديقاً في استراليا ذهب اليها وهو لا يملك شيئاً وصار الآن على ثروة طائلة من تربية الغنم وارسال لحمها الى اوربا وقد كتب اليّ مراراً يدعوني اليهِ والمرجح اني البي دعوتهُ الآن واصير راعياً للغنم

فتبسّمت وقالت ظالما قرأت عن استراليا ووددت الذهاب اليها افلا تأخذني معك

فقلت يا حبذا واكون في خدمتك

فقالت وارعى لك الغنم مثل الراعيات المذكورات في خرافات اليونان فاسدل شعري والبس وشاحاً ساذجاً ولكنني لا احسن اللعب على الصفّارة مثلهنّ . ما اجمل عيشة البداوة بعيداً من شرور الحضارة ومفاسدها . ولكن ألا تذهب معنا اولاً الى اوربا فقد صممنا امس على الذهاب اليها بعد اسبوعين . اتانا كتاب من السر هنري مكدن يدعوننا كلنا الى الذهاب اليهم وقضاء شهر من الزمان في مصيفهم وطلب منا ان نخبرك بذلك وندعوك للذهاب معنا فلنذهب الى هناك اولاً ثم نعود الى هنا ونسافر الى استراليا

فقلت لها انتِ تمزحين فلا يحسن بمثلي الذهاب الى النزهة بعد ان اصابني ما اصابني

فقالت يا سلام اخارت عزائمك من هذه الخسارة الطفيفة

فقلت لها اني مسرور لانكِ لا تعلمين مقدارها

فقالت هب انك خسرت كل ما تملكه بل قد بلغني انكَ خسرت كل ما تملكهُ حقيقة فهل نسيت ما يقول الشاعر "ما الفخر بالمال ان الفخر بالرجلِ"

الفصل الحادي والعشرون

اتفقوا على ان لا يتفقوا

عدت الى بيتي كاسف البال مبلبل الافكار اقول تارةً ان بها مثل ما بي من لوعة وغرام ثم اغالط نفسي واقول بل هذا غرور مني وما يحببني اليها وسني يكاد يكون مضاعف سنها ولا انا من اهل الظرف والقصوف وقد جاءت النازلة التي نزلت بي ضغثاً على ابالة فلا عمري يناسب عمرها ولا ثروتي تناسب ثروتها بعد ان فقدتها كلها او اكثرها. وقد اخبرتها اني مسافر ولا بدَّ من السفر وساتحمّل مضض الفراق لاني انا الجاني على نفسي. اقول ذلك ثم افكر في ما يأول اليهِ امر الجمعية السرية وتأثيرها في سياسة البلاد واحوالها المالية فترتعد فرائصي لانها اذا لم يُتلافَ امرها ساءت بها سمعتنا وضاقت حلقات الازمة الحاضرة فلا بدَّ من بقائي هنا لعلي اساعد على احباط مساعيها. وقد يكون في ابتعادي عن السيدة نزهة ما يؤلمها ولا يجوز لي ذلك في شرع ولا في عرف لاني لم ارَ منها الاَّ كل ما يسرُّني. اهذا هو الدافع لي الى البقاء وانا اتذرَّع اليهِ بالجمعية والمصلحة العمومية او الدافع اليهِ حبي لها وكراهتي الابتعاد عنها. فساورتني هذه الافكار الى ان تكبَّد البدر السماء وران الكرى على الاجفان فاستسلمت لسلطان النوم والاحلام. وقمت في الصباح منتعش القوى مطمئن البال على غير ما نمت كأن دمي نزح كل ما في جسمي من فضول اليوم الماضي وعوَّضني منها دقائق جديدة مملوءة قوة ونشاطاً فاغتسلت وافطرت ولبست ثيابي وعزمت ان ارد الى لورد هارفي كل النقود التي استلمتها منهُ لاني لم انفق منها شيئاً ولا عملت بها عملاً يذكر حتى الآن ثم اقطع تذكرة السفر من محل كوك واسافر في اول باخرة تذهب الى استراليا. وجلست اراجع حسابي وادبر اموري الى ما بعد العصر واذا بالمستر مكنزي قد جاءني وهو يقول لقد بلغنا غايتنا او كدنا فقد وقع الشقاق بين الاعضاء حتى يصحّ فيهم قول مَن قال انهم اتفقوا على ان لا يتفقوا. والظاهر ان صاحبك الاستاذ هو سبب هذا الشقاق

قلت وكيف ذلك

قال ان تنويمك لهُ المرة بعد المرَّة اثَّر في ذهنهِ. ورفع راتبهِ زاد هذا التأثير والظاهر انهُ كلَّم بعض الاعضاء من الذين على شاكلتهِ وبيَّن لهم ان سعيهم عقيم واجتهادهم لا جدوى منهُ وانهم ينالون باللين ما لا يُنال بالشدة. فلما اجتمعوا البارحة للاقرار على الاعمال التي يجب عملها والرجال الذين يعملونها ارتأى بعضهم تعيين الرجال بالقرعة كما يفعل

الفوضيون والنهلست فلم يوافقهُ جمهورهم على ذلك ووقع بينهم الشجار وارتأى رئيس الجلسة تأجيل البحث في هذا الموضوع الى الليلة التالية فلم يشأ طالبو القرعة ذلك وقال لهُ واحد منهم انك تطلب التأجيل هرَبًا فردَّ عليهِ الرئيس بكلام اغاظهُ وهدَّدهُ بالطرد من الجلسة فتوسط صاحبنا الاستاذ بينهما فكان جزاؤُهُ الشتيمة منهما كليهما فخرج مغضبًا والتقى بي هذا الصباح وامرَّ اليَّ ببعض ما جرى وهو يقول اننا اتفقنا على ان لا نتفق . فاخبرت صائب بك بما سمعت وهو استخلص بقية الخبر من بعض الذين يثقون بهِ . وفي رأيهِ ان الفريق الاكبر منهم لا يزال مصرًّا على العمل وان بعضهم سيتبرَّع تبرُّعًا اذا لم يقرَّ القرار على الافتراع وهم يحسبون ان امرهم لا يزال مكتومًا ومن رأيهِ انهُ يكفي لتبديد شملهم اعلان امرهم لانهُ قلَّ من تحملهُ شجاعتهُ على الثبات . وقد ارسلوا تلغرافات رمزية الى اخوانهم في السودان هذا الصباح فحُجزت ولكننا لم نهتدِ الى حلها ولم نشأ ان نخبر الاستاذ بها لاننا لا نأتمنهُ الى هذا الحد اما المكاتيب فلا سبيل الى حجزها لانهم يرسلونها باسماء بعض التجار وقد اتيت الآن استشيرك في الامر

وظهر لي من كلامهِ انهُ لم يكن عارفًا بما اصابني من الخسارة فوقعت في حيرة . ثم خطر ببالي ان امين افندي كان معهم وان كان قد وقع الخلاف بينهم الآن وضعف امرهم فمن المحتمل اني استطيع ان اكتشف ذلك منهُ فقمت الى التلفون وكلمتهُ وطلبت منهُ ان يأتي اليَّ لاستشيرهُ في بعض الشؤُون فقال انهُ يأتي بعد ساعة فقلت للمستر مكنزي اني ابحث واعلمهُ برأيي في المساء

واتاني امين افندي بعد ساعة وجرى بيننا الحديث التالي

— هل كتبتَ عقد الوكالة المطلقة لابيك في كل شيء في الرهن والبيع والقبض والوفاء

— نعم كتبتهُ

— هل خصصت البيع بالذكر وذكرت اطياني بمعالمها حتى لا يكون على عملهِ اقل اعتراض من المحكمة

— نعم فعلت ذلك والظاهر انك لا تزال مصممًا على السفر

— نعم لا ازال مصممًا لانني لا ارى لي سبيلاً آخر فاني اخاف ان املاكي كلها لا توفي ديوني اذا عُرِضت للبيع في هذه الايام ولاسيما اذا زيد الطين بلةً بما ينوي عليهِ الحزب الوطني او الجماعة القائمة لاحراج الانكليز واخراجهم من هذا القطر

— ما هو الضرر الذي ينالنا من خروجهم

— نفقد كل ما بقي لنا من الثقة المالية في اوربا الى ان تزول اسباب الاضطراب وهل يخطر ببالك ان الانكليز يخرجون من هنا الاَّ اذا ارغمتهم اوربا على ذلك وكيف ترغمهم من غير حرب وهل تقع حرب ولا تتزعزع الثقة المالية واذا تزعزعت فمن يخرج نقوده من صندوقهِ ومن يشتري فدان الطين بعشرة جنيهات لا يا امين افندي لا ما دام حزب الثورة ناوياً هذه النيَّة فلا امل لي بايفاء ديوني من بيع املاكي ولا بدَّ لي من المهاجرة والهرب من هذه البلاد والسعي وراء الرزق في بلاد اخرى

فاحمرَّت وجنتاهُ وكنت اراهُ كمن يمنع نفسهُ عن الكلام او يزن كلامهُ قبل ان ينطق بهِ وبقي صامتاً دقيقةً من الزمان ثم قال

— حزب وطني حزب هلس كلنا هلس لا نصلح لشيء ولكن ما قولك فانت توافقني على اننا اذا أُعطينا الحكومة الذاتية اي اذا تركنا لنتولىَّ امر انفسنا فذلك اصلح لنا وقد لا يكون اصلح لنا في اول الامر ولكنهُ سيكون اصلح لنا اخيراً فنقع ونقوم ونقع ونقوم الى ان نتعلَّم بالاختبار مواقع الضعف فنجتنبها ومواقع القوة فنلجأ اليها وأؤكد لك ان هذا هو رأي بعض نواب الانكليز ايضاً فاننا اذا قمنا وعملنا عملاً كبيراً محسوساً يدلُّ على استنكارنا للحالة الحاضرة وعدم رضائنا بها فهم يشدون ازرنا في مجلس النواب الانكليزي ويهددون وزارة الاحرار بمقاومتها او تنيلنا مرادنا . والاحرار يضحون كل شيء حتى يبقوا في مناصبهم لانهُ مضى عليهم سنون كثيرة قبلما عادوا الى الوزارة وانت تعلم ان مصالحهم كثيرة مثل مصالح المحافظين فيضيع جانب كبير منها اذا طال انقطاعهم عن تقلُّد زمام الاحكام وقد اخبرونا صريحاً اننا اذا ضربنا ضربةً قاضية فهم يدافعون عنا ويحملون حكومتهم على انالتنا مطالبنا

— ما هي هذه الضربة القاضية

— هذه مسألة يصعب حلها بماذا تشير علينا انت

— اشير بان تقوم البلاد كلها قومة واحدة من حدود السودان الى آخر الوجه البحري وتحصروا الانكليز كلهم كما فعل اهالي الهند وتعلنوا انكلترا انها اذا لم تعلن الجلاء عن مصر في اربع وعشرين ساعة فلا امان على حياة رجالها فيجتمع مجلس النواب حالاً ويقوم اصدقاؤكم من اعضائهِ ويطلبون اعلان الجلاء وإخبار الدول الاوربيَّة بذلك رسمياً فيكون لكم ما تثمنونهُ قلت ذلك وانا اظهر الجد في مقام المزح

فتبسم وقال ما ادراك اننا لا نفعل ذلك

فقلت ومن قال انكم لا تفعلون ذلك اليست هذه هي خطتكم التي تحالفتم عليها

فامتقع وجههُ ولم ينطق بكلمة وانتظرت برهةً ولما رأيتهُ صامتاً لا يتكلم لم اشأ ان اقف عند هذا الحد بل قلت لهُ انت ترى ان كل ما تقولونهُ وتصممون عليهِ في سركم يُعلَم تماماً . والراجح عندي ان الانكليز يعلمون الآن كل كلمة قيلت في جمعيتكم ويعلمون اسم كل عضوٍ من اعضائها لانهم غير غافلين عن ذلك ولا رجالكم كلهم اهل لحفظ السر ومن منهم لا يشتري رضى المحتلين بخبر ينقلهُ اليهم وما ادرانا ان ليس بعضكم جواسيس على بعض بل ما ادرانا ان الذين يحرّضونكم على هذه الاعمال هم هم يشون بكم لاني لا ابرئهم من غاية يقصدونها ونفع يجرونهُ الى انفسهم فان كانت جرائد اميركا اوقعت العدوان بين اميركا واسبانيا واوقدت نار الحرب بينهما لكي يكثر قرّاؤها بنشر اخبار القتال فلا يكثر على امثالها ان توقع اضطراباً في هذه البلاد يطول امرهُ اياماً واشهراً لكي يتّسع لها مجال النشر عنهُ . وزد على ذلك ان الماليين كلهم يتوقّعون مثل هذه الحوادث ليكتسبوا بها بهبوط الاسعار وارتفاعها فانهُ اذا حدثت ثورة في القطر المصري هبطت اسعار اوراقهِ المالية عشرين او ثلاثين في المئة فيشتغل السماسرة والماليون بها بين بيع وشراء وتكثر مكاسبهم

فقال اظنك مصيباً في كل ما قلت يا خيبة الامل . اذاً انت واثق اني منهم

قلت لا ريب في ذلك وقد رأيت اسمك في دفتركم بعيني ورآهُ اولو الحل والعقد منهم ولكن يحتمل انهم لم يعرفوا انك انت المراد بذلك

فقال ومن اطلعهم على اسمائنا

قلت هذا سر لا يمكنني ان ابوح بهِ ولكن هناك اسماء أُخرى ها كها لترى اني غير مخدوع

ثم ذكرت لهُ اسماء كثيرة ممَّا بقي في ذاكرتي

فغيّر موضوع الحديث وقال لي كلمةً يعمل على شاكلتهِ فمالنا ولهم ولكن ما قولك في مجلس النواب لماذا لا يكون لنا مجلس نوّاب مثل غيرنا من الامم الراقية

قلت لا اعلم ما هو اعتراض المحتلين على ذلك ولكن لا يخفى عليك اننا نحن الشرقيين نقيم الجامعة الدينيَّة فوق كل جامعة فاذا انقسمنا الى احزاب تكوَّن منا حزبان حزب كبير جدًّا يشمل تسعة اعشار السكان او اكثر وحزب صغير يشمل عشر السكان او اقل فيكون اعضاء المجلس كلهم من الحزب الاول . ومعلوم ان كل حزب يراعي مصلحتهُ ولا يراعي مصلحة غيرهِ اذا كانت مخالفة لمصلحتهِ الاَّ اذا اراد ان يسلفهُ ليستوفي منهُ اي اذا تعادل الحزبان فان كلاً منهما يصير يراعي مصلحة الحزب الآخر مع مصلحتهِ حتى اذا اعطيت ازمَّة الحكومة

للحزب الآخر لا تضيع مصالح الحزب الاول — اما اذا بقيت ازمة الحكومة في يد حزب واحد لم يعد يخشى من مناظرة الحزب الآخر لهُ . ولو كانت مصالح الحزب الاصغر صغيرة مثلهُ لجاز الاغضاء عنهُ وعنها لان القليل يضحّى في سبيل الكثير ولكن مصالح الحزب الاصغر تساوي مصالح الحزب الاكبر او تزيد عليها فلا يقبل منصف ان تضحّى وهي تشمل جانباً كبيرًا من اطيان القطر واكثر مباني المدن الكبيرة وكل البنوك والشركات التي فيها . ولا منجاة من ذلك الاَّ اذا بطل انقسام الناس بحسب اديانهم في مصالحهم المعاشية والسياسية وهذا سيأتي يوماً ما ولكني اخاف ان يكون ذلك اليوم بعيدًا . وانت ترى ان الامر الذي اشرت اليهِ خاص بالقطر المصري وما من بلاد اخرى يمتلك عشر سكانها نصف مصالحها غير هذا القطر

وهناك امر آخر خاص بهذا القطر ايضاً دون سواهُ وهو ان معايش الناس فيهِ متوقفة على ارادة جماعة من رجال الحكومة لانها متوقفة على ري الاطيان من النيل وتوزيع مياه النيل في يد رجال الحكومة وهذه المياه محدودة المقدار وقت الحاجة اليها لا تروي الاَّ مقدارًا معلوماً من الاطيان وفي اوقات محدودة فاذا لم يعدل رجال الري في توزيعها نفعوا زيدًا واضروا عمرًا ولذلك تمنع الحكومة المصرية موظفيها من امتلاك الاطيان في الاماكن التي يقيمون فيها لكي لا يستعملوا سلطتهم في جر النفع الى انفسهم فيضروا غيرهم . ومعلوم ان اعضاء مجلس النواب ينتخبون من اصحاب الاطيان الواسعة فلا بدَّ لهم من ان يراعوا مصلحتهم ويفضلوا نفعهم بحكم الفطرة ويضطر رجال الري ان يراعوهم ايضاً ما دام زمام الامور في يدهم فهم ككبار رجال الحكومة من هذا القبيل واذا فُضِّلت مصالحهم على مصالح غيرهم وقع الضرر على مجاوريهم من اصحاب الاطيان فاما ان يصبروا على الضيم او تقوم في البلاد الخصومات والمشاكل الكثيرة والفلاَّح يقتل اباهُ على نقطة ماء . ولا سبيل للخلاص من هذا المشكل الاَّ بحرمان كبار المالكين من ان ينتخِبوا ومن ان ينتخَبوا اي يجب انتقاء اعضائهِ من الذين لا اطيان لهم في البلاد فيبطل بذلك اول ركن من اركان الحكم النيابي وهو حريَّة الانتخاب . فحالة القطر المصري خصوصية من هذا القبيل لا مثيل لها ولا يناسبهُ الاَّ حكومة دستوريَّة في يد اناس مختارين اختيارًا مثل حكومتهِ الحاضرة ولذلك نجح في عهدها نجاحًا باهرًا لا يفضلهُ نجاح البلدان التي حكومتها نيابيَّة

فقال هذا امرٌ لم يخطر على بالي قبلاً وقد تكون مصيباً فيهِ ولكن لا يتعذَّر علينا تلافي السبب الاول بقسمة الاعضاء الى حزبين غير دينيين كان نخلق غرضاً لنقسم فيهِ مثل

جعل التجارة حرة او غير حرة فيتألف كل قسم من القسمين من مسلمين ومسيحيين او بان نجعل المجلس مجلسين ويكون اعضاء المجلس الاعلى معينين تعييناً من العلماء والعظماء واصحاب المصالح الكبيرة في البلاد ويكون لهُ الحكم في قبول ما يقرُّ عليهِ مجلس النواب او رفضهِ كما يفعل مجلس الاعيان في بلاد الانكليز واما استعمال النواب مركزهم في جر المنافع اليهم فالصحف تكفي لمنعهِ لانها تندد بالذين يفعلون ذلك وتشهّرهم والمثل الانكليزي يقول اذا وجدت الارادة وجدت الطريق فلترد الحكومة الانكليزية اعطاءنا مجلس نواب فتجد عندنا مجلساً لا يقلُّ عن مجلسها في علوّ شأنهِ وسنعود الى هذا الموضوع في فرصة اخرى.

ثم ان نزهة قالت لي انك مصمم على السفر الى استراليا فهل ذلك صحيح

فقلت نعم لاني لا ارى لي سبيلاً الى البقاء هنا وقد قلت لي انك كتبت التوكيل لابيك فعيّن اليوم حتى نذهب الى المحكمة وامضيهُ لك

فقال اسمع مني وغيّر فكرك وتعال معنا الى بلاد الانكليز

فقلت يا للعجب اتطردونهم من بلادكم ثم تذهبون الى بلادهم

فقال انت تعلم ان مقاصدنا شريفة ولا محل للجدال الآن في الغاية الموصلة اليها اما ان كان بيننا خوَنة يفشون اسرارنا بعد اخذ الايمان المغلظة على كل واحد منا فهذا امر يفوق حدسي وتصديقي وقد كنت عازماً ان ابقى هنا ولا اسافر مع اهلي هذا الصيف اما الآن فقد عزمت على الذهاب معهم وترك الدار تنعي من بناها. ونحن الشرقيين لا تقوم لنا قائمة ما دام اعداؤنا منا وفينا وهذا كل ما يمكنني ان اقولهُ في هذا الموضوع واطلب منك ان لا تكلمني فيهِ بعد الآن ولكنني اتوسل اليك ان تسمع نصيحتي وتسافر معنا باسرع ما يمكن ولا اذهب من هنا حتى تعدني بذلك وانا واثق انك ستشكرني يوماً ما لاني لججت عليك هذه اللجاجة واقنعتك بالسفر معنا فعدني الآن انك تفعل حسب رغبتنا كلنا ابي واختي واخويَّ وانا ومس مكدن

ولما قال مس مكدن تبسم كمن يلمّح الى شيءٍ

فقلت اني استغرب لجاجتك في هذا الامر ألا تعلم اني امسيت صفر اليدين لا املك شيئاً

فقال ذلك افضل لك لان المال لا يأتي منهُ الاَّ التعب وان لم يكن معك نفقات السفر فانا ادفعها لك

فشكرتهُ وقلت لهُ اني افكّر في الامر قبل ان ابتّ رأيي فيهِ . ثم ودعني ومضى

الفصل الثاني والعشرون

الضربة القاضية

سافرت عائلة ابرهيم بك فودعتها ووعدتها اني اتبعها بعد اسبوعين من الزمان وقد لجّت كثيرًا لاذهب معها فاكرهت نفسي على الاباء حتى كاد يقوم في نفس السيدة نزهة اني اكره السفر معهم ولم استطع ان اكشف لها جليّة امري بل فضّلت ان تتهمني بشيء ليس فيّ على ان افشي لها سر بقائي في مصر ورجعت من وداعها ويكاد قلبي يطير وراءها

واليوم التالي لسفرهم كان يومًا مشهودًا لم ترَ مصر مثلهُ من ايام المماليك ولكن لم يعلم بهِ الاَّ نفر قليل ولم تنشر عنهُ الجرائد حرفًا

لما تحققت من كلام الاستاذ وامين افندي وغيرهما من الذين سبرت غورهم ان الجمعيَّة السريَّة مصممة على عملها رغمًا عمَّا وقع بين اعضائها من الشقاق وان اعضاءها المتفرقين في الاقاليم عازمون على العمل في وقت واحد في اليوم والساعة ابديت رأيي للورد هارفي فقلَّبهُ على وجوه كثيرة وخابر انكلترا بهِ فوافق وزير الخارجيَّة ووزير الحربيَّة عليهِ

وفي التاسعة والعشرين من الشهر القمري قامت فرقة من الجيش الانكليزي من ثكنة قصر النيل نحو نصف الليل وسرت الهوينا الى ان بلغت باب الخلق وقد البست حوافر خيلها احذيةً من اللبد ثم احاطت بالدار التي تجتمع فيها الجمعية السرية وملأت الشارع الموصل اليها ولما رآهم البواب فرَّ هاربًا فدخلوها وصعد جماعة منهم الى غرفة الاجتماع والمسدسات في ايديهم وكان الاعضاء جلوسًا ومسدساتهم امامهم فتبادلوا بعض الطلقات النارية وعلت الضوضاء واطفأ الرقيب نور الكهرباء ولكن كان مع الجنود الذين دخلوا قناديل سرية فاظهروها وفي اقل من ساعة قبضوا على كل الحضور وكتفوهم ووقع جريحان على الارض وهما من الجنود فاعتنى رفاقهما بهما

وكان الاعضاء الحضور لا يزيدون على ستة وعشرين وستبقى اسماؤهم مكتومة ما لم يفشوها هم وفُتحت الدفاتر وطلب من الكاتب ان يكتب الى كل رؤساء الاعضاء في الاقاليم يخبرهم بما حدث وبان اسماء الاعضاء كلها صارت في يد رجال الحل والعقد وان يختم الكتابة بخاتم الجمعية

وأُجلس الاعضاء الستة والعشرون على مقاعدهم وخاطبهم قومندان الجيش بواسطة الترجمان قائلاً

اننا لا نلومكم على الغرض الذي ترمون اليهِ ولكننا نلومكم ونخطئكم في الوسائل التي عزمتم على اتخاذها فانها جنائية ولا تنيلكم الغرض المطلوب بل تبعدكم عنهُ او تجعلهُ مما يستحيل الحصول عليهِ ولعلَّ اللوم علينا لاننا استعملنا اللين الزائد معكم وسمحنا لجرائدكم بتضليلكم اما اللين فطبعنا ولا نريد تغييرهُ واما اطلاق الحرية للجرائد فقد كنا نظنهُ مفيداً لكم ولم يخطر لنا انهُ يأول الى تضليلكم ولقد حذرتمونا انتم من هذه الحرية فلم نسمع شكواكم ونرى الآن انكم كنتم مصيبين واننا نحن المخطئون وهذا هو الشفيع لكم عندنا فان كنتم تعدوننا الآن وعداً اكيداً انكم تعدلون على الخطة التي كنتم جارين فيها فنحن نعدكم بكتمان اسمائكم ونسيان ما بدا منكم حتى الآن وما كنتم عازمين عليهِ حتى لا تروا منا في معاملة الموظفين منكم اقل فرق عمَّا اعتادوهُ من المعاملة وان كنتم لا تعدوننا هذا الوعد الآن بالقسمَ على الانجيل والقرآن فاننا نجركم الى المحاكمة في مجلس عسكري لانكم شارعون في ثورة ومتهيئون لها وانتم تعلمون عقاب مَن يخرج على حكومة بلادهِ ويعرضها لثورة داخلية

ووقف واحد منهم وهو من المحامين المشهورين بقوة العارضة وضعف المبادىء فمنعهُ قومندان الجيش عن الكلام وقال لهُ ليس المقام مقام اتهام ودفاع بل مقام طلب المعذرة عن ذنب ارتكبتموهُ والعفو عن جرم اقترفتموهُ فاما العفو واما العقاب

وكان بينهم شيخ عركهُ الدهر ولم ينجُ من عواقب الثورة العرابيَّة الاَّ بشق النفس وقد عُرف بادارة شراعهِ الى كل ريح فقال انا اول مَن يطلب العفو والمرحمة فانكم انتم الذين انقذتمونا من نير حكامنا السالفين ولولا تزيين بعض رجالكم لنا الخروج عليكم ما كنا لنفعل ذلك . وتلاهُ آخر وآخر وكان اقلهم كلاماً اشرفهم نفساً واقربهم الى الانصاف والانتصاف . فحلفوا كلهم يمين الطاعة للحكومة وعدم الخروج عليها بوجه من الوجوه فأُطلق سراحهم واحتمل الجنود القتيل والجريحين واخذوا دفاتر الجمعية وعادوا من حيث اتوا

وفي صباح الليلة التي حدث فيها ما حدث دعي زعماء الجمعية في السودان الى دارِ واحاطت بهم الجنود وأُخبروا بكل ما عُلم من امر جمعيتهم وما حدث لزعمائها في القاهرة وهُددوا بالمحاكمة في مجلس عسكري فاقسموا يمين الطاعة . ووصلت المكاتيب الى الاقاليم فهلعت القلوب خوفاً وصمتت الالسنة . وقد مضت الايام ولم اسمع ان احداً اشار الى هذه الجمعية بكلمة او بحرف . ولما اطمأن بالي من هذا القبيل عزمت على السفر الى انكلترا تابعاً عائلة ابرهيم بك

الفصل الثالث والعشرون

توالي المصائب

توالت عليّ المصايب وتفاقمت والمصايب لا تأتي فرادى . خرجتُ بالامس من بيتي ومضيت الى محل كوك لاقطع اوراق السفر واقمت هناك نحو ساعتين لكثرة الطالبين ولاختلافنا على الغرفة التي اخترتها . أقمت ساعتين وانا لا ادري ما خبأهُ لي القدر فيهما . وضعت ورقة السفر في جيبي وذهبت لابتاع ما لابد لي منهُ من الامتعة فرأيت مركبات الحريق تسير تباعاً سراعاً فقلت في نفسي انها دُعيت احتياطاً للتمرُّن لان النيران قلما تضطرم في النهار ولم اسر طويلاً حتى التقى بي رجل اعرفهُ وقال لي أأنت هنا تمشي الهوينا والنار تضطرم في بيتك . فجعلت اعدو على رجليّ والمركبات حولي ومن عادتي ان اركب مركبة لاقلّ داعٍ لكنني لم انتبه لها الآن بل حسبت انني لا استطيع ان اصل الى بيتي الاّ عدواً . رآني الناس اعدو فجعلوا يعدون ورائي وهم يصيحون حرامي حرامي واكثرهم من الغوغاء والبهّال وتبعهم رجال البوليس وكدنا نعثر بخطوط الترامواي ونقع بعضنا فوق بعض . وجددتُ في عدوي حتى انقطع نفَسي وكدت اقع عياءً . ولما دنوت من البيت ورأيتُ الدخان مسردقاً فوقهُ ويندفع منهُ كأنهُ من افواه المدافع تتخللهُ ألسنة النار تعلو وتندلع ثم تنقطع ويتلوها غيرها والمضخات تضخ الماء من الشارع فتزيد النار احتداماً كأن الماء زيت يصب عليها — لما رأيت ذلك كلهُ خانني جلَدي فصرخت بيتي بيت ابي مسقط رأسي ما هذه البلية ما هذه المصيبة كتبي دفاتري اوراقي حججي عقودي كل ما املكهُ كل ما بقي لي في هذه الدنيا . وهجمت على النار ودخلت باب البيت كمن يلقي بنفسهِ في الاتون فامسك بي احد رجال المطافيء وقال خذوا هذا المجنون من هنا فحاولت الافلات منهُ ولكنهُ قبض على ذراعيّ ودفعني الى الوراء فوقعت على جنبي ونهضت حالاً وهجمت عليهِ وقلت لهُ كيف تمنعني من دخول بيتي . فرأيت انهُ لم يسمع كلامي لانهُ كان ملتفتاً الى كوّة في اعلى البيت فالتفت اليها واذا خادمي الامين فيها فناديتهُ باسمهِ وقلت لهُ القِ بنفسك ومددت يدي كمن يحاول استلقاءهُ . ونشر رجال المطافيء ملاءة كبيرة امسكوا بزواياها الاربع واشاروا اليهِ ليرمي نفسهُ ووقفت انا اناديهِ واشير اليهِ ليفعل ذلك ففعل ونجا واقبل على يديّ يقبلهما ويقول لا تصعد فقد احترقت الغرف كلها واحترق كل ما فيها ولم انقذ غير هذه الاوراق واعطاني رزمة كبيرة كانت في يدهِ فاخذتها

وكدت ارمي بها في النار لو لم يخطفها من يدي . وارى الآن انهُ اصابني نوع من الجنون حينئذٍ لان اعمالي صارت كاعمال المجانين . واقبل بعض الاصدقاء فاحتملوني في مركبة وذهبوا بي واحترق البيت كلهُ ولم يبقَ منهُ الاَّ جدران قائمة فلم يعد السفر يخطر لي ببال حينئذٍ لاسيما وان ثيابي كلها احترقت وليس في الامكان ان اخيط غيرها واسافر في السفينة التي كنت عازماً على السفر فيها

لكن الدهر الذي عبس في وجهي بسم في وجه غيري فقد جاءني كتاب من الدكتور يوسف يقول فيهِ بعد الديباجة "ماذا جرى عندكم حتى انتقلت الحال من العسر الى اليسر . اتذكر لما ودعتنا على المحطة انني ملت انا وابي وتكلمنا مع احد السماسرة فانهُ تبعنا الى المحطة وقال لنا ان تحت يدهِ الف سهم من اسهم البنك الاهلي وصاحبها ساعٍ الى بيعها لانهُ مضطر الى النقود وهو يقبل ١٦ جنيهاً ثمن السهم اذا كان الدفع نقداً والثمن الآن ١٧ جنيهاً وهي بهذا السعر اي ١٦ جنيهاً تعطي ربحاً خمسة في المئة او اكثر فلا بد من ان يرتفع ثمنها حالما تتحسن احوال السوق لان اغنياء اور بابل يكتفون باربعة في المئة او اقل اذا كان الربح مضموناً . فرأى ابي ان الصفقة رابحة واشتراها منهُ واعطاهُ تحويلاً على البنك بالمبلغ على التسليم فلما وصلنا الى مرسيليا هذا الصباح رأينا في جرائدها ان سعر اسهم الاهلي بلغ ٢٢ جنيهاً فبعثنا تلغرافاً الى السمسار نأمرهُ ببيع هذه الاسهم حالاً فباعها لنا وبلغ متوسط ثمنها ٢١ جنيهاً ولا بدَّ من ان يكون بيعها قد انزل السوق . وجاءنا تلغراف منهُ بذلك فبلغ ربحنا خمسة آلاف جنيه في اقل من خمسة ايام ونحن الآن منتظرون ان تفي بوعدك وتقوم باول وابور يقوم من الاسكندرية ولك عندي بشارة اخرى ساطلعك عليها بعد وصولك الينا"

لما قرأت هذا الكتاب خطر على بالي قول مَن قال

خُصَّ بالمال واليسار اناسٌ ... واراني خُصصتُ بالإملاقِ

انا لا شكَّ من بقية قومٍ ... خُلِقوا بعد قسمة الارزاقِ

ولم احسد ابرهيم بك على كسبهِ بل سررت بهِ غير اني فكَّرت في احوال الدهر وقلت لا بدَّ من يد للسعد والنحس في شؤون الناس والاَّ فكيف يتفق ان تتوالى عليَّ النقَم وعلى غيري النعم فان كانت خسارتي بالقمار ناتجة عن جهلي اساليب اللاعبين فاحتراق بيتي لا يد لي فيهِ وما هو الاَّ قضاء وقدر . وكذا كسب ابرهيم بك خمسة آلاف جنيه في خمسة ايام لم يتعب فيها ولم يشقَ بل اتاهُ الربح منساقاً اليهِ وهو سائر في عرض البحر

وكنت قد رأيت ارتفاع الاسعار المتوالي وعرفت سببهُ لان مكاتب التيمس عرف

بنكية الجمعية السرية وبعث بالخبر تلغرافيًا الى جريدتهِ وفي اليوم التالي جاءت التلغرافات الى مكاتبي الدايلي نيوز والدايلي كرونكل والدايلي ميل تطلب منهم ان يرسلوا اليها تفصيلاً مسهباً عمَّا حدث فكان لذلك وقع كبير في الدوائر المالية في انكلترا وللحال اطمأنت الخواطر واقبل الناس على ابتياع الاسهم المصرية واهالي مصر لا يعلمون سبب ذلك. وقد حمل الينا البريد الاخير الجرائد الانكليزية وفيها تفصيل مسهب لما جرى وما احدثهُ في الاسواق المالية. وانا كنت اعرف ذلك ولم استفد منهُ على الاطلاق بل لم يخطر ببالي ان استفيد منهُ فكيف عميت عن مصلحتي فلم اغتنم هذه الفرصة فالنحس اعماني عنها والسعد دفع ابرهيم بك الى مشترى الف سهم من غير سعي والدنيا قسَم

ويختلف الرزقان والسعي واحدٌ الى ان ترى احسان هذا لذا ذنبا

وقد تخدع الدنيا فيمسي غنيُّها فقيرًا ويغنى بعد بؤس فقيرُها
فكم قد رأينا من تكدُّر عيشة واخرى صفا بعد اكدرار غديرُها
وكم طامع في حاجة لا ينالها ومن آيس منها اتاهُ بشيرُها

وما يدري الفقير متى غناهُ ولا يدري الغني متى يعيلُ
ولا تدري اذا يممتَ ارضًا باي الارض يدركك المقيلُ

ولم ارَ ذا عسر يدوم ولا ارى مكان الغنى الاَّ قريبًا الى الفقرِ
وان يكُ عارًا ما اتيت فربما اتى المرءَ يومُ البؤس من حيث لا يدري

هذه ابيات لشعراء العرب عبَّروا بها عمَّا خبروهُ من حال الزمان وقالوها عفوًا من غير تعمل. وقد كنت انكر السعد والنحس واقول بالسعي والاجتهاد واعلق نجاح المرء على جدهِ اما الآن فتزعزعت ثقتي ولا سيما بعد هاتين الحادثتين احتراق بيتي ولا استطيع ان ابنيهُ الآن بخمسة آلاف جنيه وكسب ابرهيم بك خمسة آلاف جنيه وهو لم يسعَ اليها ولا حرَّك في طلبها يدًا فلا بدَّ من قوَّة فاعلة تفوق طور البشر تدبّر شؤونهم فتغني وتفقر وتُسعد وتُشقي وانا الآن في دور الشقاء

وخلاصة المقال ان نجم سعدي قد افل وزهري انقلب كان معي فصار عليَّ والدهر في الناس قلَّب

ان دان يومًا لشخص ففي غد يتقلَّبْ

فلا تثق بوميض من برقهِ فهو خُلَّبْ
واصبر اذا هو اضرى بك الخطوب والَّبْ
فما على التبر عارٌ في النار حين يقلَّبْ

فلقد عبس في وجهي ثم بسم وهو الآن كالح عبوس ولا ادري متى تنفرج هذه الازمة ونحن مسيَّرون لا مخيَّرون . وان كان الامر كذلك فما فائدة السعي والحنكة . ولماذا هذا الجهاد المستمر والنصَب الدائم

ومن الغريب اني لم اكن مؤمِّنًا على بيتي ولا على اثاثي فخسرت كل شيء في يوم واحد مع اني كنت انصح للناس ان يؤمِّنوا حياتهم وبيوتهم . وقد عُرض عليَّ ثمن فاحش بهذا البيت منذ اربعة اشهر فلم ابعهُ لاني لم ارد ان يهدم بيت ولدتُ فيهِ وورثتهُ من ابي ولوكان قديمًا واذا اردت بيع ارضهِ الآن فلا اجد لها مشتريًا لان الضيقة المالية استحكمت حلقاتها ولا ترى مشتريًا واحدًا حتى ترى مئة بائع ولو لم تهبط الاسعار حتى الآن . ولكن يحتمل ان تروج الاشغال ثانية ما دام سعر القطن عاليًا جدًّا فان ثمن هذا الموسم سيبلغ ثلاثين مليونًا من الجنيهات او اكثر فنوفي بهِ ثمن ما نستوردهُ من البضائع وربا دين الحكومة ويبقى في البلاد ما يكفي لترويج الاشغال فيها . وما دام سبب القلق السياسي قد زال فلا بد من رجوع المياه الى مجاريها ما لم يقم عندنا وفي البلاد الانكليزية طائفة اخرى من المتجرين بالشغب والاراجيف

لما رأيت ان لا امل لي بانقاذ شيء من امتعتي اشتريت الضروري من الثياب وانتقلت الى فندق شبرد واخترت غرفةً تطلُّ على الشارع لاسلي نفسي برؤية المارين فيهِ ومراقبة احوالهم . ثم كتبت الى بيت ابرهيم بك اخبرهم بخلاصة ما جرى لي لان الصحف نشرت خبر احتراق بيتي فلم يعد في الامكان اخفاؤهُ وقلت لهم اني عدلت عن السفر بتاتًا

وسافر المستر مكنزي الى اوربا بعد النكبة بيوم واحد وجاءني منهُ كتاب مسهب من لندن كتبهُ يوم وصولهِ اليها وقال لي فيهِ انهُ وجد الدوائر المالية ناقمة علينا اشد النقمة وكذلك فريق كبير من حزب الاحرار . اما الدوائر المالية فلان بعضها رأى هبوط الاسهم المصرية المستمر واضطراب الاحوال في القطر المصري فباع على المكشوف حاسبًا ان هذا الهبوط سيتوالى ولاسيما بعد ما يفلس اكثر الشركات فيغطي ما باعهُ بثمن بخس جدًّا كما فعل في عهد الثورة العرابية . والظاهر ان بيت . . . . كان يعلم بتصميمنا على نكبة الجمعيَّة السرية وتمزيق شملها واعادة الامن والاطمئنان الى البلاد فكان سماسرتهُ يشترون لهُ كل

ما يُعرض في السوق . فلما نشرت جريدة التيمس خبر النكبة في صباح الليلة التي حدثت فيها وخرجنا منها فائزين ذعر البائعون فتهافتوا على الشراء ولا سيما بعد ان أيدّت جرائد المساء خبر جريدة التيمس وايدتهُ جرائد الصباح في نسخات اصدرتها ظهر النهار . قال ولا ادري كم بلغت الخسائر ولكنها فاحشة جدًّا فان احد اصدقائي خسر وحدهُ نحو ستين الف جنيه وهو واحد من كثيرين . وقد بردت السوق نوعاً الآن لان الارتفاع حدث بسبب كثرة المكشوف ولولا الخوف من افلاس كثيرين لاستمر الارتفاع لان بيت . . . . كانوا قد اشتروا مبالغ طائلة فلو مسكوا يدهم واصرّوا على التسليم ولم يبيعوا لارتفع ثمن الاهلي الى اربعين جنيهاً او خمسين وثمن الزراعي الى عشرين او ثلاثين وقس على ذلك سائر الاسهم التي تعاملوا بها كما حدث عندكم في اسهم دفريس ولكنهم شفقوا على الناس بعد ان مصُّوا دمهم وابقوا فيهم بقية من الرمق . نحن نتعب ونشقى ونخاطر بارواحنا ولا يذكر اسمنا ولا نستفيد شيئاً وهؤلاء الداريُون يديرون دفة الاموال كما يشاؤون وهم جالسون على كراسيهم في بيوتهم وان شئت فقل انهم يديرون دفة السياسة في المسكونة كلها وسيكون شأنهم في القرن التالي اعظم من شأن الملوك والقياصرة في القرن الماضي ان لم تتغلّب الاشتراكية عليهم وتنزلهم عن عرش سيادتهم . اما شركتنا شركة قارون فحالها عدم واخي يشكر الله لاننا لم نخسر كثيراً ولا خسّرنا غيرنا . والاطيان التي ابتعناها اطيان زراعية من اجود اطيان القطر المصري وقد ابتعناها بثمن بخس ومراد اخي وشركائهِ ان يأخذوها لحسابهم ويصفُّوا الشركة ويردوا للناس ما دفعوهُ فنخلص من وصمة العار

. هذا فريق من الماليين وعندنا فريق آخر تعلمهُ وهو الذي يسعى دائماً في حمل حكومتنا على ضم القطر المصري الى بلادنا لكي تبقى مصالحهم فيهِ مضمونة دائماً واكثر هذا الفريق من غير امتنا فساءهُ ما فعلناهُ وهو يسعى الآن الى اثارة الخواطر علينا ولا يبعد ان يعمد الى نيل مرادهِ باساليب اخرى فيرشي جرائدكم حتى تحرك الفتنة في البلاد وهي قادرة على ذلك فقد بلغني وانا آتٍ في الطريق ان في يد احد اصحاب الجرائد المصرية صكاً على كبير يتعهّد لهُ فيهِ بان يدفع اليهِ اربعة آلاف جنيه كل سنة ان هو نفى من القطر المصري بسبب ما يكتبهُ في جريدتهِ ولذلك يتفانى في احراج الحكومة الى نفيهِ بكل اساليب الطعن والشتم والتعيير . والظاهر ان رجال الحكومة يعلمون ذلك وهم صابرون على الضيم حتى لا ينال ذلك الرجل مأربهُ لكنهم يفعلون فعل من يحرق بيتهُ لكي لا يستظل خصمهُ بظلهِ

اما السياسيون الذين نقموا علينا وسلقونا بالسنة حداد في مجلس النواب فلا بدَّ من ان

تكون قد اطلعت على اقوالهم فينا فقد قالوا اننا اعدنا عصر تيمورلنك وجنكيز خان وديوان التفتيش واننا انتهكنا حرمة البيوت وحرية الافراد واكثروا من الضوضاء ورئيس المجلس ساكت لا يجيب جواباً الى ان قام عضو من المحافظين وحمل عليهم حملة منكرة وقال انهُ ما كان يرى للوزارة الحاضرة الاَّ السيئات اما عملها هذا فمحا اكثر ذنوبها لانهُ انقذ القطر المصري وكل البلدان الشرقية من شر تلك الجمعية الخبيثة . ولما رأى الاحرار ان المحافظين مؤيدون للوزارة سكنت ثورتهم . ولا ادري ماذا كان تأثير عملنا عندكم حينما اشاعتهُ جرائدكم

هذه خلاصة ما كتبهُ اليَّ في هذا الموضوع اما جرائدنا فلم تبحث فيهِ في اليوم التالي بل في الذي بعدهُ واكثرها بحث فيهِ بحث الواجم ولا شبهة عندي ان اقلها كلاماً فيهِ اكثرها استعظاماً لهُ وايجاساً منهُ . ولقد لقيت الاستاذ بعد يومين فلم يشر الى ما حدث بكلمة . وقد اخذ كل احد يتبرأ مما حدث ويقول انا مالي . وسافر كثيرون من اعضاء الجمعية الى اوربا وظاهر الامر انهم ذهبوا هَرَباً من الحر والحقيقة انهم خافوا من ان يُتَّهموا بتهمة اخرى قصد الانتقام منهم . وقد زعمت احدى الجرائد ان الدفتر الذي فيهِ اسماء الاعضاء وقوانين الجمعية مزوَّر وان الذين وُجدوا في دارها كانوا مجتمعين لغرض غير حسن ولكنهُ ليس سياسياً فانهم كانوا يجتمعون للسامرة ويقامر بعضهم لا كلهم وهذا امر غير حسن لذاتهِ ولكنهُ ليس سياسياً على الاطلاق . وبمثل هذه السخافات ارادت ان تبرئهم ثم حملت على المحتلين حملة شعواء واتهمتهم باختلاق المشاكل قصد الايقاع بالوطنيين وتسويد صحيفتهم في اوربا لكي يشتد الضيق المالي عليهم ويضطروا ان يبيعوا اطيانهم فيشتريها الاوربيون منهم ويتملكوا بلادهم . وكثر تحدث الناس في هذا الموضوع في الايام التالية ولكن احتراق بيتي الهاني عنهُ فلم اعد اهتم بهِ بل صارت نكبتي شغلي الشاغل

والتقيت بالدكتور عبد الله غير مرة فحاد من طريقي ولم يسلِّم عليَّ وبلغني انهُ شامت بي وقد حرَّض اختهُ لتكاتب السيدة نزهة وتخبرها بما اصابني . نعم لقد ضاقت بي المذاهب ويقال ان البلايا اذا توالت تولَّت فعسى ان يكون هذا نصيبي فيبتسم لي الدهر بعد عبوسهِ

الفصل الرابع والعشرون

انفراج الازمة

هذه اربعة اشهر اخرى مرّت كحلم النائم والحياة كلها حلم وغمامة صيف . ولا معزي لي الاّ مكاتيب السيدة نزهة وابيها واخوتها فانها لما رأت توالي النكبات عليّ بادرتني بالكتابة تهوّن عليّ الامر وتقوي فيّ الأمل كأنها اشفقت ان تبرّح بي النوائب فأستسلم للقنوط وجعلت تكتب اليّ مرتين في الاسبوع بالاضطراد فصارت مكاتيبها تعزيتي الوحيدة وجعلت انتظرها كليالي العيد وكنت احسب خسارتي المالية ربحاً كبيراً لانها حنت عليّ قلب هذه الفتاة الطاهر ثم اعود الى عقلي واحاسب نفسي فارى اني مخطيء ولا يحق لي ان اشركها في الضراء ولم اشركها قبلاً في السرّاء . الاّ ان رجوعي الى عقلي صار نادراً فغصت في تيار الحب والامل وجعلت اعدّ الايام والساعات وانتظر رجوعها بفروغ الصبر

وقبل ان عادت عائلة ابراهيم بك بنحو شهر من الزمان بعثت اليّ تخبرني ان الدكتور يوسف خطب مس مكدن وان اباها لم يسلم بذلك اولاً لانهُ كان يود تزويجها من لورد مورلي ولكنهُ سلم اخيراً لما رأى اصرارها وبعد ان عاشر الدكتور يوسف ورأى كرم اخلاقهِ وصحة معارفهِ

وقد سرّني هذا الخبر لكنهُ حرّك فيّ عوامل الغيرة ضنًّا بالسيدة نزهة ان ترى اخاها وزوجتهُ في بسطة من العيش وهي مقترنة بفقير لا يملك شروى نقير . ترى الفتاة التي كانت معها رفيقة مأجورة قد صارت سيدة عليها ولا تزال السيادة للمال . فجعلت افكر في طريقة اصرفها فيها عن عزمها لاعتقادي انها تجد لها رجلاً اغنى مني واكفى . وقد ساورتني هذه الهموم ونغّصت عيشي ولولا اشتغالي المتواصل بمراقبة اطياني واملاكي ولولا مكاتيب السيدة نزهة التي كانت ترد عليّ بالاضطراد لوقعت في وهدة اليأس

ثم جاءتني ورقة الدعوة الى الاكليل وارسلت تلغراف التهنئة في الساعة التي ظننت ان الاكليل تمّ فيها ولبثت انتظر عودة عائلة ابراهيم بك وذهبت الى الاسكندرية لملاقاتها وابتهجت برؤيتها رغماً عما كنت اجدهُ في نفسي من الانقباض . ولقد كاد سروري بمشاهدة السيدة نزهة ينسيني ما انا فيهِ لكنني كنت اعود الى نفسي حتى في ساعة السرور واعنّفها على تطلّعها الى ما صار فوق طورها واقول انهُ لا يحلّ لي في شرع الحب والانصاف ان احمل

هذه السيدة على مشاركتي في فقري واحرمها من كل ما يناله المرء بالغنى من الراحة والرفاهة. ورأيت من مس مكدن وهي الآن زوجة الدكتور يوسف اكثر مما كنت انتظر من الحب والانعطاف فكانت تعاملني كما تعامل الاخت اخاها وكانت مغرمة بنزهة وكثيراً ما قالت لي انها تغار مني ولا تحسد احداً غيري. وظهر لي كأن بيت ابرهيم بك لم يكونوا يحسبون اقل حساب لغناي او لفقري لكن ذلك لم يخفف عني بل زادني نغصاً لاني صرت احسب نفسي عالة عليهم واخيراً سلمت لحكم القدر وبعت اقطاني واستوفيت ديوني فاصلحت حالي بعض الشيء واقترنت بالسيدة نزهة. ولا يعنيني الآن تفصيل ذلك ولو انتهت قصتي هنا ما همني ان اكتب حرفاً منها ولكن الحادثتين التاليتين دعتاني الى كتابة هذه الفصول لان فيهما اكبر دلالة على وجود ما نسميهِ سعداً او توفيقاً ففي الاسبوع الذي اقترنت فيهِ رافع امين افندي في قضيتي ضد الدكتور عبد الله ورفاقهِ وابرز للمحكمة كتاباً كتبهُ الدكتور عبد الله الى احد اصدقائهِ اخبرهُ بهِ عن الحيلة التي استعملها لخداعي باتفاقهِ مع وكيل النادي على ترتيب الورق في صورة يكون هو الرابح فيها دائماً وانا الخاسر وبيَّن لهم ايضاً ان الدكتور عبد الله زوَّر امضائي في تحويل من التحاويل التي قطعها عليَّ

فلما اطلع القضاة على ذلك حكموا بابطال حق الدكتور عبد الله ورفاقهِ والزامهم بالمصاريف وحكموا عليهِ ايضاً بالسجن لتزويرهِ امضائي. فُردّت اليَّ ثروتي كلها ولم افقد منها الاَّ البيت الذي احترق وكان قديماً وكنت عازماً على هدمهِ وبناء بيت آخر بدلاً منهُ. واتفق بعد يومين او ثلاثة انني حلمت حلماً اقلقني وصرخت وانا نائم وجدتهُ وجدتهُ فايقظتني نزهة وقالت ماذا وجدت قلت لا شيء وضاع الحلم مني وذكرتْ لي ذلك في الصباح فقلت اني لا اتذكر شيئاً ثم اخذت افكر كمن نسي امراً كان يعلمهُ وقمت حالاً على غير ارادتي وقلت لها قومي معي لنذهب الى بيتنا القديم فمشينا سوية ودخلنا من الباب الخارجي وكان مسدوداً بالواح من الخشب وجلنا من مكان الى آخر الى ان وصلنا الى مخدع داخل غرفة المنامة التي كان ابي ينام فيها وكان قبل مظلماً لقلة النور فيهِ اما الآن فانكشف سقفهُ واستنار فشعرت كأنني عدت الى الحلم الذي حلمتهُ وبادرت الى الجدار الشرقي حيث كانت خزانة كبيرة وقد حرقت الآن مع ما احترق وتفرَّست في الحائط فرأيت فيهِ اشارة كأن كوَّة سدّت فيهِ تعلو عن الارض نحو مترين وكان الردم من السقفين قد ملأ ارضهُ وعلا فوقها حتى كاد يصل الى الكوَّة فقرعت الحائط بعصاي فظهر لي كأنهُ فارغ فاخرجت قضيب حديد من شباك وجعلت احفر في الحائط حول تلك الكوة المسدودة وهي صغيرة طولها نحو قدم وعرضها كذلك فوجدتها

مسدودة بالطوب الاحمر (القرميد) وحينئذٍ تجلى لي الحلم الذي حلمتهُ وتذكرتهُ بكل تفاصيلهِ حتى ظننت اني عدت الى النوم ولم يكن الاَّ دقائق قليلة حتى انتزعت اكثر ذلك الطوب واذا انا بصندوق صغير من خشب الجميز طولهُ نحو قتر في مثلهِ عرضاً وعلوًّا وهو مقفل ولا مفتاح فيهِ فقلت لنزهة هذا كنز ابي الذي اخفاهُ خوفاً من اسماعيل باشا ثم توفي فجأة وقد فتشت عنهُ في كل جوانب هذا البيت فلم اجدهُ فكشفهُ لي الله الآن على وجهك

فقالت ألم اقل لك ان مال الحلال لا يضيع وعدنا الى البيت ووضعنا الصندوق على مائدة وعالجناهُ حتى انفتح فوجدنا فيهِ صرة صغيرة من الاطلس فمسكتها بيدي والتفتُّ الى نزهة وقلت لها اني حتى هذه الدقيقة كنت اعدُّ نفسي مجرماً لانني ظلمتك في جعلك تتركي غنى ابيك وما يجلبهُ الغنى من الراحة والرفاهة اما الآن فسعدكِ قد كفَّر عن ذنبي وردَّ اليَّ ثروة ابي اتدرين ما بيدي يا نزهة طالما قالت لي امي انهُ كان عند ابي عقد كريم لا يقدَّر بثمن اشتراهُ من احد الهنود وحاول اسمعيل باشا مراراً اخذهُ منهُ ولكن احتماءهُ بحماية اجنبيَّة وقاهُ منهُ

ثم فتحت الصرَّة واذا انا بعقد يتألق ضياءً فيهِ اثنا عشر حجرًا كبيرًا من الزمرُّد تتناسق صغرًا من الوسط الى الطرفين الكبير منها كاللوزة والصغير كالفولة وواسطتها ماسة كالكوكب الدري يبلغ ثقلها نحو ثمانين قيراطاً فيها زرقة طفيفة تزيدها اشراقاً وبهاءً . وقد قالت لي المرحومة والدتي ان ابي اشترى هذا العقد باثني عشر الف جنيه وهو يحسب انهُ اشترى لقطة لا تقدَّر بثمن . ثم قمت الى نزهة وقلدتها بهِ وقبَّلت وجنتيها وقلت لها لم اتمكن من ان اهدي اليكِ حلية ثمينة قبل الآن فخذي هذا العقد فان صفاء جوهرهِ يرمز الى صفاء قلبك الطاهر . فاعتنقتني وقالت لقد وجدتُ جوهرتي الثمينة قبل الآن . ثم ذهبنا الى بحيرة قارون لنبني لنا بيتاً على شاطئها نقيم فيه ايام النزهة ونتذكر الساعات الاولى التي قضيناها هناك

1939

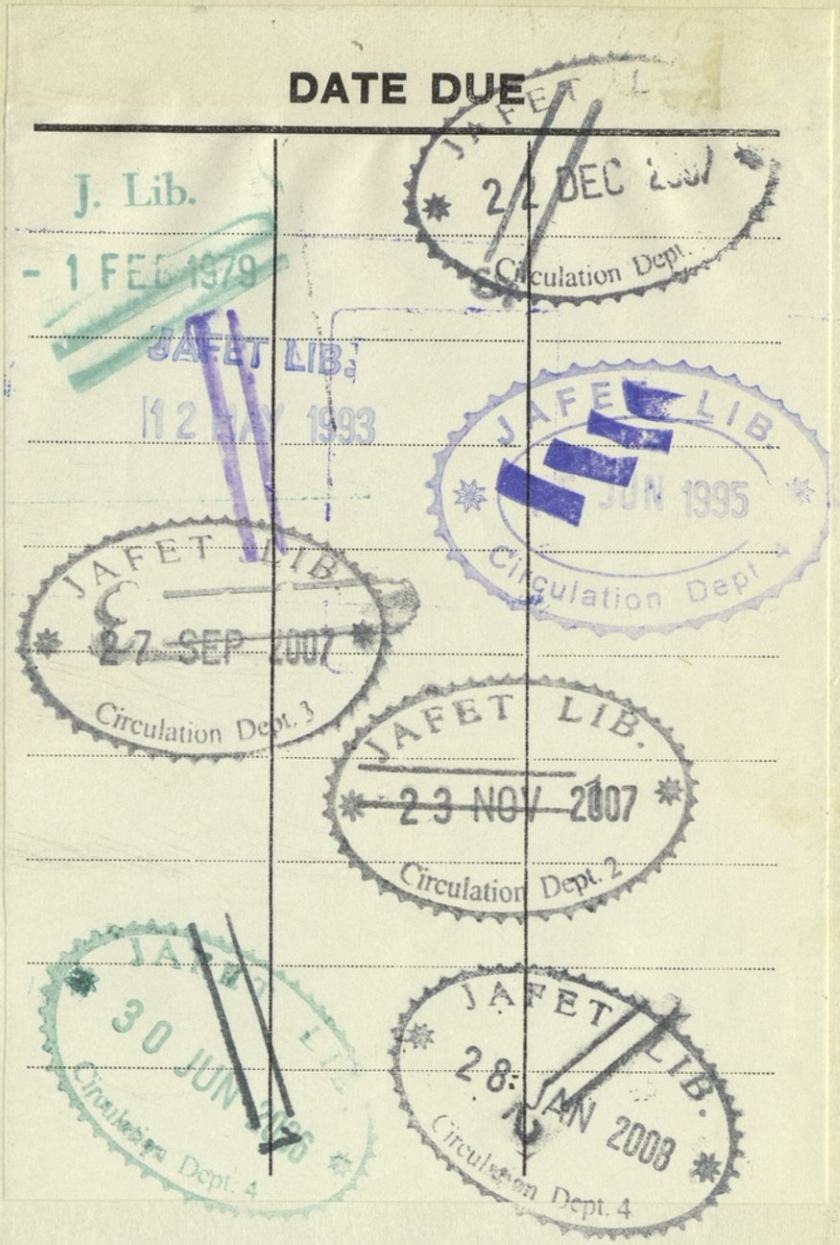
DATE DUE
J. Lib.
- 1 FEB 1979
JAFET LIB.
12 MAY 1993
JAFET LIB.
JUN 1995
Circulation Dept.
JAFET LIB.
27 SEP 2007
Circulation Dept. 3
JAFET LIB.
23 NOV 2007
Circulation Dept. 2
30 JUN
Circulation Dept. 4
JAFET LIB.
28 JAN 2008
Circulation Dept. 4

892.73:Sa24fA:c.1
صروف، يعقوب
فتاة الغيوم
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038156